حمزة العباسي

لَو لم تمت

رواية

لو لم تمت

اسم الكتاب: لو لم تمت

اسم الكاتب: حمزة العباسي

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-398-250817

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

لو لم تمت

رواية

حمزة العباسي

بسم الله الرحمن الرحيم

فكرة

لكي تكتب يجب أن تتحلى بالمشاعر الكافية للموضوع الذي تكتب عنه:

الغضب، الحقد، الحب، اليأس، الألم...

كلها مشاعر يجب ألا تظل مكبوتة داخلنا.. يجب أن نبحث لها عن ملاذ للخروج.

لا تستسلم للقدر وتترك من تحب!

لا تترك غيرك يقرر مجرى حياتك!

لا تخضع للمرض.

قاوِم من أجل من تحب.

البداية

دائمًا ما تكون أوضاعنا الاجتماعية أو الطبقة التي ننتمي إليها سبب فشل علاقاتنا العاطفية.

في نظر كل العائلات، أو بالأحرى أغلبها، أن زواج شاب بفتاة فقيرة لا تنتمي لطبقته، أو العكس؛ فتاة ثرية تريد الزواج من شاب فقير، هو مشروع زواج فاشل.

الكل يقيس علاقة الزواج على أنها مصلحة مشتركة لكلا الطرفين، ولا يراعي الأبوان كون علاقة الزواج هي علاقة حب من الدرجة الأولى، وكذلك هي علاقة توافُق وتراضٍ، عَلاقة مبنية على المسؤولية المشتركة واتخاذ القرار الذاتي لكلا الطرفين.

دائمًا ما يستنتجون، بمنظورهم، فشل وخراب العلاقة من أولها، وهي سذاجة من الجانب العلمي والثقافي، وكذلك هو تحقير لطرف معين، ودائمًا يكون هو الطرف الدخيل على الأسرة. استنتاجهم الخاطئ بعدم التزامه بالمسؤولية اتجاه بيته والأسرة التي سيكوِّنها، ينجم عن أثر هذه الأفكار تدمير شخصين كان من المفترض احترام قرارهما؛ لأنه في نهاية المطاف هو خيارهما في تقرير

مصيرهما، والسماح لهما بتحمل مسؤولياتهما. ليس من الضـــروري أن تكون صحيحة مئة بالمئة، لكن هذا حقهما في تقرير مصيرهما.

ليس الوضع الاجتماعي هو الوحيد، فنجد كذلك معتقـــداتنا وثقافتنا التي ترسخت، أو بالأحرى رسَّخوها، في عقولنا جيلًا بعـــد جيل.

إن كان لدينا الحق في تقرير مصيرنا، فما الذي يمنعنا من اتخاذ قراراتنا بأنفسنا؟ ما دام الجميع على حق، فهذا يعني أن الخطأ نحـــن من اقترفه؟

إرادتنا الحرة وقراراتنا قد تكون سبب تحقيق أحلامنا ورغباتنا، وقد تكون سبب فشلنا الذريع ويأسنا وتحطيم مستقبلنا.

الكثير منا يعيش في هذه الحياة على أساس العيش فقط؛ العيش من أجل العيش، لا أحلام تُذكر، ولا تحديات أو صعوبات.

للعيش قد نجد أنفسنا بلا كرامة، بلا حرية، وبلا هدف حـــتى، نجد أنفسنا نلبي رغبات أناس آخرين قد لا يكون لهم دخل في حياتنا أساسًا، وهذا ينطبق على الكثير في مجتمعنا الحالي، وبالخصـــوص في زمننا هذا الذي أصبح فيه العيش الكريم مجرد أمـــانٍ لا يحققـــه إلا القليل.

لكن لماذا سنعيش على هذا الأساس؟ لماذا لا نقف في وجه من يكبح رغباتنا في إسعاد أنفسنا؟ لماذا نهتم للقيل والقال؟ سواء فعلت أم لم تفعل، هناك من سيقولون ويتكلمون. لماذا لا نقف في وجه حياة المألوف التي قد تدمر مستقبلنا وطموحاتنا في النجاح؟

بؤس الحياة أم هي سذاجة العيش؟

الكل يقرر مصيرنا وماذا سنفعل وماذا سنصبح في المستقبل منذ خروجنا إلى هذه الحياة: المدرسة التي سنرتادها، المهنة التي نريدها، حتى حياتنا العاطفية يتم تقريرها رغمًا عنا.

ألم يخيرنا الله في اتباع دين الحق؟ خلقنا وتركنا نفكر بعقولنا ونتبع الدين الذي نراه دين الحق، فلماذا يقرر حياتنا من هو مخيَّر مثلنا؟

وُلِدنا أحرارًا، إذن يجب أن نعيش على هذا الأساس؛ أحرارًا بفكرنا ومعتقداتنا، نبحث عن الصواب ونختار ما هو مُرضٍ لرغباتنا، نتبع قلوبنا وما توحي به عقولنا لبلوغ السعادة بأنفسنا.

العائلة دائمًا على صواب، إذن نحن دائمًا على خطأ، فإذًا لماذا ندرس ونجتهد؟ هل فقط من أجل عائلاتنا؟ إذًا نحن نحيا فقط من

أجل إرضاء الآخرين. الغير هو كابوسنا الذي تجبرنا العادات على إرضائه.

أين نحن في كل هذا؟

وتأتي الشجارات فيما بينهم لتزيد الأمر سوءًا، تحدث في الواقع كما في المسلسلات على أتفه الأشياء أو التصرفات... شجارات قد تكون عابرة، أو قد تكون سبب خرابها، إما أن تقوي علاقة العائلة ببعضها أو أن تخرب ما بُني منذ سنين.

لكن هذا ما لم يحدث مع هذا الشاب اليافع، الذي خرج من منزله ومدينته لتقرير مصير حياته، الشاب الذي درس وتعلم من العلم ما جعل منه أستاذًا، سنوات من الكفاح والاجتهاد والسهر، ها هي وأخيرًا تجدي نفعًا عليه، الشاب الذي غادر، وكل أمله هو عيش حياة كما خطط لها ورسم له القدر طرقات لتحقيقها.

غادر وكله أمل وطاقة ليبقي أفضل ما لديه طيلة حياته، لكنه سيعود عوضًا عن الأمل محمَّلًا بالألم والمرض والندم.

«راجي»، أو كما يقول له الجميع «الأستاذ راجي»، درس كباقي الطلبة في جامعة العلوم بالرباط حتى اختار التدريس مهنةً له، المهنة التي كانت فيما مضى مهنة مشرفة، ولا يحصل عليها إلا من

هو ذو عقل وحكمة، حتى أصبحت في زمننا هذا وظيفة تبلغ من الحقارة في أعين البعض في مجتمعنا، وكأنها وظيفة مكتبية أو مهنة لرعاية الأطفال.

راجي لطالما اشتهر بكفاءته وشهد بتفانيه في مهنته الجميع؛ زملاؤه في الثانوية وكذلك طلابه. إنها طاقة الشباب وحب العمل والطموح ما أوصله إلى قلوب الجميع: حيِّه الذي يسكن فيه، جيرانه وأصدقاؤه، حتى نادل المقهى الذي يرتاده كل يوم يشهد بلطفه وأخلاقه العالية وتعامله الذي يبعث على شخصيته التواضع والاحترام.

أستاذ بمعنى الكلمة، في الثانوية هو أستاذ، وفي الشارع هو مواطن، وفي الحي هو أخ للجميع. تعامله الجميل مع الجميع جعل منه أيقونة ذات صيت وسمعة طيبة في هذه المدينة، بالرغم من أنه ليس منها، لكنه جعل له مكانًا فيها وفي قلوب من يحيط به، فهو دائمًا يتحدث عن الرباط، المدينة التي كبر في أزقتها ودرس فيها وقضى أحلى أيام حياته فيها.

لطالما أحب هذه المدينة منذ صغره وتحدث عنها أينما حل وارتحل. أيام الدراسة الجامعية هي الفترة التي يحب فيها الإنسان الأماكن والأشخاص والتفاصيل، الفترة التي تترسخ في ذهن كل

طالب جامعي أو مهندس أو إعلامي. المدينة التي تأوي غالبية الطلبة من كل بقاع المملكة وخارجها.

كان لراجي في الرباط كل ذكريات الطفولة والشباب، ذكريات مفعمة بالحياة بين منزله والجامعة والسكن الجامعي والأماكن والأحياء المجاورة التي تضفي على المدينة أناقتها وحسنها، لكن بالرغم من كل هذا الحب إلا أن هذه المدينة التي سيتعيَّن فيها سرقت قلبه وحياته أيضًا، سرقت ذكرياته المليئة بالحب والعشق.

تعيَّن راجي في ثانوية بمدينة الجديدة، فما كان عليه إلا أن يستقر فيها ويبدأ حياته.

أحب العمل فيها وسكَّانها وأحياءها، ووجد فيها ما كان ينقصه في مدينة الرباط، أو أنه وجد فيها ما كان يحبه في الرباط: الهدوء، والراحة، والبساطة، إلا أنها بالرغم من كل ما أعطته ستسلب منه كل شيء.

أول يوم يزور فيه الجديدة بعد تعيينه ذهب ليبحث عن منزل للكراء. كان هناك صديقة له من أيام الدراسة التي لم يلتقِ بها منذ ثلاث سنوات منذ تخرجها، فقط كانت تجمعهما مواقع التواصل الاجتماعي.

كانت نورة تنتظره في محطة القطار يومها قبل وصوله بدقائق. سلما على بعضهما البعض بعد غياب دام ثلاث سنوات، عزمته للغداء يومها، فقد كان هناك أحاديث وأسرار لم تُحكَ، وضحك على ذكريات أصبحت من الماضي القريب.

إنها ذكريات الفترة الجامعية التي لا تخلو من المواقف المضحكة والتفاصيل التي لا تُنسى مهما طال الزمن.

نورة

قبل أسبوع راسَلني راجي على الفيسبوك، لم يكن معه رقم هاتفي بحكم أنني أغيّره كثيرًا من فترة إلى أخرى، ودائمًا ما كنا نسأل عن أحوال بعضنا البعض أنا وراجي عبر الفيسبوك.

حتى ذلك اليوم الذي قال لي فيه إنه تعيَّن في الجديدة في إحدى الثانويات وسط المدينة. ذهبتُ أنتظره في محطة القطار يومها، وبقيت أنتظره بالرغم من أن القطار تأخر قليلًا عن موعد وصوله.

وصل القطار، وخرج راجي، فوجدني أنتظره في السيارة بالقرب من سيارات الأجرة.

لقد تغيّر كثيرًا عن آخر مرة رأيته فيها قبل ثلاث سنوات؛ شاب طويل القامة في عمر السابعة والعشرين، تخفي لحيته وسامته وتفاصيل وجهه، ولم تتغير طباعه بالمرة، فهو خجول، ودائمًا يبدو أنه مترعج أو غاضب.

عزمته على الغداء في مطعم مُطلٍّ على البحر، أعلم أنه لا يحب البحر، لكنه سيحب الهدوء فيه، فقد بقيت أنتظر وصوله لنتغدى معًا. بعدها شربنا القهوة التي لطالما أحبها بلا سكر، لا أعلم ماذا

يعجبه فيها هكذا، لكنه يتلذذ بمرارتها وقسوتها على فمه. بقينا نتحدث ونضحك على ذكرياتنا والأيام التي أمضيناها معًا.. تلك الأيام التي قضيتها في الرباط كانت بمثابة أحسن فترة في حياتي، الكثير من الطرائف والذكريات الرائعة التي لن تجدها في مكان آخر أو تعيشها فيه.

ضحكنا وتحسرنا على كل ما فعلناه معًا، أو ما كان الزمن يفعله بنا آنذاك. هذا الشاب الرائع من كل الجوانب لم يتغير من الداخل، لا زال نفسه كما عهدته؛ كثير الخجل، قليل الرفقة، وحيدًا دائمًا، يعيش في عالمه الخاص، فحتى يوم التقينا أول مرة لم يعرفنا أحد ببعضنا أو بالشعبة التي درسنا فيها معًا، مجرد رواية كان يقرؤها في المقهى الموجود أمام السكن الجامعي. يومها سألته عنها، فما لبث أن انتهيت من سؤالي حتى فاض بكل محتواها، ولحظتها صنفته وأنا أراقب ملامحه وهو يتحدث بشوق ويسرد تفاصيل الرواية وأحداثها، كل شخصية وهدفها ودورها، يتحدث وكأنه هو من صنع كل هذه الشخصيات، وكأنه يسرد قصة عن حياته.

أصبحنا أصدقاء من بعدها، وأصبحنا نلتقي دائمًا، وكان كلما ينتهي من رواية إلا وعزمني على فنجان قهوة وسرد لي تفاصيلها،

وكان يجبرني على شرب تلك القهوة بلا سكر، ويجلس يحكي ما بجعبتها وكأنه هو من كتبها.

لم أكن أدرك كل هذا الكم الهائل والجميل في الروايات، فنحن معشر طلاب الرياضيات وطلاب الهندسة بشكل عام لا نحب الروايات أو حتى قراءتها، ليس الكل، لكن الأغلبية الساحقة، فقط نقول إنها للطلاب الأدبيين. يا لَلسخافة! الرواية لا تعرف طالب شعبة معينة، أو عمرًا معينًا، أو زمانًا أو مكانًا، هي فقط متاحة للجميع لمن لديه الشغف للقراءة، الشغف للسفر بين السطور، وعقل يستوعب كَمية المعلومات الكامنة داخلها، وهذا ما كان يعجبني في هذا الشاب المختلف كليًّا عن غالبية الطلاب.

راجي كان بمثابة أخٍ لي في هذه المدينة، ولطالما ساندني وساعدني كثيرًا، ولم أشعر يومًا بأنني بعيدة عن بيتي أو متغربة في مدينة مسنة تلك.

نظرنا إلى الساعة، فإذا بها قرابة الخامسة مساءً، الوقت يمر بسرعة. قال إنه سيذهب إلى الفندق ليضع أمتعته، وفي الصباح سيذهب إلى الثانوية التي سيدرس فيها، وبعدها سيبحث عن منزل للإيجار. فمنذ أسبوع، في اليوم الذي قال لي فيه إنه سيأتي، علمت أنه سيلزمه بيت ليسكن فيه، وقمت بالبحث عن واحد. أعلم أنه

لن يحب أي نوع من الأماكن، فقط أن تكون خالية من الضـــجيج والصخب، وأدري أنه لن يوافق، لكن هذا قليل من المعروف الذي لن يصل إلى ما كان يفعله معي وقتها.

استودعته عند باب الفندق، وذهبتُ إلى حين ملاقاته في الغـــد في نفس الوقت وفي نفس المقهى لأصحبه كي يرى المـــنزل الـــذي سيكتريه.

راجي

يوم جديد،

عمل جديد،

حياة جديدة،

وصباح جميل في مدينة جديدة،

الشغف للجديد وروح المثابرة هو كل ما يجعلنا نصحو من النوم. إنه أول الطريق فقط. أتذكر دومًا ذلك اليوم، استيقظت باكرًا مع بزوغ الفجر لملاقاة الحياة الجديدة التي أنتظرها وتنتظرني. خرجتُ للفطور في أحد المقاهي الشعبية القريبة من الفندق، وشربت قهوتي في انتظار السابعة والنصف للذهاب إلى الثانوية.

التقيت بالمدير وزملائي الأساتذة، ودخلت إلى قسمي الذي سأدرس فيه، كان كل الأساتذة كبارًا في السن، فقط أستاذة العربية كانت صغيرة، وتبدو وكأن لديها ثلاث أو أربع سنين في العمل. ودعت الجميع مع انتهاء وقت الاستراحة، وذهبتُ مع بدء العمل يوم الغد، الثلاثاء. كانت نورة قد قالت لي البارحة إنها وجدت منزلًا بجوار الحي الذي تسكن فيه.

كانت الحادية عشرة صباحًا، ذهبتُ إلى المقهى انتظارًا لها، وأنا أحتسي قهوتي بدأت أبحث عن أسعار الكراء في هذه المدينة. من حسن حظي أنني جئت في فصل الشتاء، حيث تكون الأسعار منخفضة قليلًا، وتعود للارتفاع في العُطل وفصل الصيف، بحكم أنها مدينة ساحلية.

في الواحدة بعد الظهر، عند مجيء نورة، ذهبنا للغداء، وبعدها ذهبنا لرؤية المنزل الذي سأكتريه. كانت قد قالت لي إنها وجدت لي منزلًا بالقرب من الحي الذي تسكن فيه، حي نظيف لكنه شعبي قليلًا، ومنزل مجهز ونظيف، أقل ما يقال عنه إنه يصلح للسكن. عندما كنت أتفق مع صاحب المنزل على ثمن الكراء، قاطع كلامي وقال لي إن نورة تكفلت بكل شيء وأعطته مقدَّم شهر. نظرت إليها، فهزت كتفيها مع نظرة تعجب وهي تضحك. استودعنا صاحب المنزل وخرجنا للذهاب، وأرسلت لها مصاريف الكراء التي أدتها، بالطريق، عن طريق تطبيق البنك.

قررت جلب أغراضي عشية هذا اليوم بمجرد أن أعود إلى الفندق وأجمعها، كان عليّ الاستقرار في أقرب وقت، لأن يوم غد أول يوم لي في الثانوية، وعلي أن أفرغ رأسي من كل هم وأتفرغ فقط لعملي.

كان أول يوم لي في الثانوية رائعًا بكل المقاييس. رحبتُ بالتلاميذ بشكل لائق، وزعت ورقة فارغة وقلت لهم أن يكتبوا فيها ما يريدون أن يحصلوا عليه في هذه السنة. كان البعض منبهرًا قليلًا، والبعض الآخر يراني أستاذًا غريب الأطوار. بدأ كل واحد على حدة يقرأ ما كتبه، وبقينا نضحك ونتحدث حتى حلول ساعة الخروج. لم يكن بيدي أي حيلة غير أن أقوم بهذا الفعل لكسب التلاميذ، فهم مجرد أولاد، ولكي تكسب من في سنهم صعب قليلًا.

كانت مبادرة لا بأس بها، وقد أقول إنها أزالت طبقة الخوف من التلاميذ تجاه أستاذهم الجديد، لكن هذا ليس كافيًا. في كل حصة أخصص مدة من الجزء الأخير للنقاش فيما بيننا والحوارات المتبادلة بين الطلاب مع بعضهم البعض.

كنت أركز على مسألة أن يتحاوروا فيما بينهم ويعبروا عن آرائهم، وكل يوم أفتح لهم مجال النقاش في موضوع ما، كالرواية، والأدب، والفلسفة، وغيرها من المواضيع المهمة التي ترافقنا كل يوم في حياتنا أو نسمع عنها.

مع الأيام وجدت أن هذا الأسلوب قد أجدى نفعًا، وأصبح التلاميذ يفعلون نفس الشيء في صف اللغة العربية والفلسفة، حتى

عندما يسألهم الأساتذة يقولون: ناقشنا هذا الموضـــوع في صـــف الأستاذ راجي.

أرى في نفسي الفخر والعمل الجاد في تلك اللحظات، كـــوني بلغت رسالة لكل الأساتذة وكذلك إلى آبائهم، فمن الواضـــح أن كل الآباء أصبحوا يعرفونني من خلال أبنائهم.

مرت سنتي الأولى هنا...

أحببت الجو، والمدينة، والعمل هنا...

سنة كاملة من العمل، أصبحت مواظبًا أكثر من مـــواظبتي في أيام الدراسة. حتى في عطلة نهاية السنة لم أذهب إلى الرباط إلا قليلًا، من أسبوعين إلى ثلاثة تقريبًا، كغيرها من الأيام التي أذهـــب فيهـــا لرؤية عائلتي.

اللقاء

في أحد الأيام، عندما سافر إلى الرباط لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع عائلته، كان قد مر إلى وسط المدينة ليلتقي بأحد أصدقائه.

التقينا في أحد المقاهي بالمدينة، وصل راجي أولًا قبل مجيء صديقه سعيد، طلب قهوته المعتادة، وذهب ليجلب علبة السجائر، وعاد مسرعًا.

عاد قبل أن تجلب النادلة القهوة، يحب دائمًا الجلوس في هذا المقهى، ويحب منظر الناس تمر من أمامه، وبائعو الكتب بجانب المقهى يضفون على المنظر أناقته خاصة.

جو شاعري هادئ ولطيف، صخب قليل، خاصة في الفترة ما قبل العصر، هذه الأماكن بجمالها لا تجدها سوى في الرباط. جلس يشرب قهوته برفقة سيجارته التي تضفي على مذاق القهوة نكهة خاصة.

جاء سعيد متأخرًا قليلًا، وجلسا يتكلمان عن العمل والطرائف المضحكة التي يعيشانها في عملهما، وقررا أن يخرجا مع بقية أصدقائهما ليلًا إلى أحد الأماكن التي يرتادونها غالبًا عندما يجتمعون.

وهما يتبادلان أطراف الحديث، لاحظ راجي فتاة تمر من الجانب الآخر للشارع قبالة المقهى الذي يجلسان فيه.

ظل ناظرًا إلى الفتاة وهو يتتبعها بعينيه حتى أوشكت على أن تختفي من مرأى بصره، إنها فتاة القطار، الفتاة التي ساعدها على حمل حقائبها يومها.

نهض من مكانه بغرابة، وجرى مسرعًا وراءها ليكلمها قبل أن تذهب، كانت مسرعة وكأنها متأخرة عن موعد محدد، وكانت تحمل أغراضًا منزلية، ويبدو أنها خرجت للتسوق. تساءل راجي: هل هي تسكن هنا؟

ظل ينادي من ورائها، ولم تسمعه حتى لمس ذراعها. استدارت بسرعة وكأن أحدًا ما سيسرقها.

استدارت، وشعرها المسدل على كتفيها يتطاير من اليمين إلى اليسار، استدارت ويا ليتها لم تستدر يومها، ولم تكلمه حتى.

استدارت، وملأت قلب هذا الشاب فرحةً ورقةً، استدارت ويا ليتها لم تستدر بالمرة، لم تتعرف على راجي، أو بالأحرى لم ترد فضح نفسها بالتعرف عليه من أول مرة.

إنها أسلحة الأنثى...

قالت له أن يذكرها به...

يا ليتها لم تتذكر بالمرة، أو أنها اعتذرت وذهبت...

ابتسمت وابتسم معها قلب راجي...

أفرجت عن ابتسامتها لكنها قبضت روح راجي...

احمرّ خَدّاها وهي تتكلم، لكنها كسرت هذا الشاب اليافع...

كيف لفتاة بسيطة أن يكون لها كل هذا التأثير على شاب كهذا؟

سألها بنبرة تفضح أمره: ماذا تفعلين هنا؟ وهل تسكنين أنتِ الأخرى في الرباط؟

أخبرته أن لديها أحدًا من أقربائها هنا، وأنها تسكن في مدينة الدار البيضاء.

بعد حديث قصير ونظرات إعجاب فاضحة، طلب منها راجي رقم هاتفها ليتواصلا لاحقًا، تبسمت وهي تدخل يديها في جيوبها وكأنها نسيت في أي جيب وضعته.

قال لها راجي ضاحكًا: أنا أريد رقم هاتفك وليس هاتفك كله! هههه

ضحكت هي الأخرى، واضعة يدها اليمنى على جبينها ووجهها المحمر خجلًا يفضح ما في قلبها.

سجل راجي رقمها على هاتفه، ونظر إليها وكأنه يسألها عن اسمها...

قالت له: اسمي زينب، وأنت؟

رد عليها، والابتسامة تعلو وجهه: وأنا راجي...

ذهب كل منهما بعد صدفة غريبة قد تتحول فيما بعد إلى علاقة حب بين شابين يافعين، حماس لطيف يغمر قلبيهما بإحساس رائع ودافئ.

ذهبت وأخذت معها قلب راجي وتفكيره، وتركته يتخبط في أسئلة لا حل لها سوى الخضوع لما يقوله القلب وما يأتي به القدر.

إنها لحظات التلاقي الغريبة، اللحظات التي يصعب الحديث أو الكتابة عنها، هي لحظات الوقوع في الحب التي لا يقوى أي من الطرفين أن يسيطر فيها على مشاعره وأحاسيسه، هي لحظة لا كلام فيها سوى للقلب وحده.

اللحظات التي يعشقها القلب وتتمناها الروح، لحظات لا تكون مخطّطًا لها أو في الحسبان، في لحظات لا نكون فيها بكامل إرادتنا...

إنه الحب الذي يتسلل خُلسة إلى القلب ويتحكم بالعقل والحواس، ويعيث فسادًا في كل أرجاء الجسد...

عندما نقع في الحب فنحن نقع في الفوضى...

الحب فوضى وأنانية وجرأة، وقد يكون فشلًا في غالب الأحيان...

عاد راجي إلى المقهى بوجهٍ مصفرٍّ ودهشة غريبة، كأنه في مدينة للأشباح، وجد «سعيد» ما يزال ينتظر، ولم يأمل عودته حتى، وهو لا يعرف إلى أين ذهب هذا السيد المحترم...

اعتذر منه راجي وأخبره بما جرى معه لحظتها، فابتسم سعيد قائلًا: أرى أنك وقعت في الحب يا أستاذ.

رد راجي: والله لا أعلم، هل هو حب أم شعور آخر، لكنه إحساس غريب وجميل في نفس الوقت، إنه شعور يعيد للروح بهجتها...

يا ليتها لم تذهب، ويا لجبني لأنني لم أعزمها على فنجان قهوة حتى...

أجابه سعيد:

الحب هو أجمل شيء في هذا الكون، هو الفارق بين العيش من أجل شخص ما وحياة المألوف التي نعيشها، يحول الروح من العيش للعيش فقط إلى غاية البدء بالعيش لأجلها، هو سبب نجاتنا من بؤس الحياة.

أنت سبق وقرأت العديد من الروايات، منها الدرامية والرومانسية، كلها مليئة بالحب، تجده هو الوحيد الذي يضفي على الرواية جماليتها، لكن إذا عشته في الواقع فستجد فرقًا كبيرًا، سترى نفسك في روايتك الخاصة.

بعد حديث طويل، استأذن راجي صديقه سعيد على أن يلتقيا في الليل، إذ يجب عليه الذهاب إلى المترل، فالكل ينتظره للغداء، ولم يرَ عائلته منذ مدة.

ذهب راجي وهو مرفوع من هذا العالم، جسده يمشي في أزقة المدينة، أما عقله وتفكيره فكله في زينب، يتذكر ملامحها وطريقة كلامها وضحكتها واحمرار خديها، وتفاصيل لقائهما، وبقي يفكر حتى وصوله إلى باب المترل.

وجد الجميع في انتظاره على طاولة الغداء، رحبوا به وجلس بينهم، وهم يسألونه عن أحواله وعمله، وهو لا يجيبهم سوى: نعم، أو: لا.

يبدو أن جسد راجي دخل المترل، لكن عقله لم يدخل بعد، فما زال في نفس اللحظة وفي نفس المكان الذي التقيا فيه.

مع حلول الليل، خرج راجي برفقة أصدقائه للسهر كما خططوا له صباحًا هو وسعيد، ولم يكن يريد الخروج ليلتها، لأنه يعلم أنه لن يعود حتى الفجر، ككل مرة يخرجون فيها.

وهو مع أصدقائه، كل ما يتردد في ذهنه هو أن يتحدث مع زينب، ويتساءل: من أين سيبدأ الحديث معها؟ وماذا سيقول؟

قرر ألا يضيع متعة ليلته هذه، وأن يؤجل مراسلتها إلى يوم غد، حجج كثيرة تدور في ذهنه، أو ربما الخوف.

لماذا يختلف الأمر عندما نقع في الحب؟ لو أنها فتاة من بائعات الهوى لكان الحديث يتطاير من هاتفه من كثرة الكتابة!

لا أعلم لماذا يصبح الإنسان بهذه السذاجة عندما يقع في الحب، السذاجة التي تغمرنا من أقدامنا حتى رؤوسنا...

لماذا كل هذه المعاناة والصراعات، بالرغم من أن الأمر بسيط جدًّا، مجرد مكالمة هاتفية أو رسالة نصية وينتهي كل شيء؟ كل تلك الأسئلة والأفكار التي لا جدوى منها، لماذا كل هذه الفوضى التي تؤرق العقل وتوشوش على حياتنا البسيطة؟

هو سؤال بسيط جدًّا قد يوفر علينا الكثير والكثير...

سؤال جوابه غاية في البساطة: نعم أو لا. إذن، لماذا من الضروري أن نفكر ونفكر، ونتساءل حتى نستنزف كامل طاقتنا، وفي الأخير نجد أنفسنا أمام الأمر الواقع بعد تفكير طويل؟

البشر كائنات معقدة، ويعقدون كل شيء حولهم بالرغم من بساطة الأمور.

بعد منتصف الليل، عادوا إلى منزل صديق لهم ليكملوا السهرة هناك، وبقي الجميع يشربون ويلعبون حتى حلول الصباح، مرة يلعبون ومرة يتحدثون، وتارة يسكتون، وأخرى يضحكون فيما بينهم، والموسيقى صاخبة، والأحاديث طويلة، والليل شارف على الانتهاء.

هؤلاء الشباب تجمعهم فرصة واحدة في الشهر أو أكثر، فكل منهم يعمل في مدينة بعيدة عن الأخرى بالكيلومترات، فلربما التضحية بالنوم في سبيل أن يستمتعوا ليلة واحدة كهذه في الشهر تكون أفضل من أن تنقطع أخبارهم جميعًا.

عاد راجي إلى المنزل مع حلول الفجر، ليرتاح قليلًا قبل أن يستيقظ القوم، ساعة أو ساعتان كفيلتان بأن تريحا أعصابه قليلًا من تعب السهر والتفكير. قرابة الساعة التاسعة والنصف، أيقظته أمه للفطور، ومثل هذه اللحظات مع العائلة من الجيد استغلالها، فليس هناك أحنّ وأدفأ من دفء العائلة مجتمعة على طاولة واحدة.

شعور رائع أن يجتمع الجميع على مائدة واحدة ويأكلون وهم يتحدثون ويضحكون، بالرغم من أن بعض العائلات لا تتوفر فيها هذه الأجواء الدافئة...

كثير من العائلات يعيشون في غربة من بعضهم البعض، لا يعيرون الاهتمام لمثل هذه الأمور، ويحيون حياة من العزلة والبعد التام، وهي لحظات يجب أن تُستغل ولو مرة في الأسبوع حتى تبقى لذّة العائلة متوارثة جيلًا بعد جيل.

عند حلول المساء، قرر راجي أن يجمع أغراضه ليتجهز للعودة إلى مدينة الجديدة.

جاء في باله بعد لحظة أن يتصل بزينب ويخبرها بأنه سيذهب إلى الجديدة، إن كانت هي الأخرى ستذهب، فطريقهما واحدة، لكنه لم يتشجع، وأقفل هاتفه، وراح يكمل جمع ملابسه.

ودّع عائلته وخرج متوجِّهًا إلى محطة القطار.

لطالما كانت هذه اللحظات بالنسبة لراجي مثل الموت البطيء، لحظات الوداع والسفر إلى مدينة أخرى وترك الرباط.

دخل إلى محطة القطار وهو يلتفت يمينًا ويسارًا، كان يتمنى أن تكون زينب هنا هي أيضًا، لكن الحظ ليس بهذه البساطة، فلا بد للقدر أن يقتلك ويجييك لتأخذ مبتغاك.

ركب القطار وهو يفكر كيف سيتحدث مع زينب ليلتها بعد وصوله، ما مضمون الرسالة التي سيكتبها، وماذا سيقول فيها.

إنها أصعب لحظات التعارف بين شخصين مبتدئين في الحب، إنه التنازل عن الكرامة في سبيل الحب.

ظل يفكر حتى غلبه النوم، وغفا وكأنه لم ينم يومين متتابعين.

تفكير طويل يليه نوم بلا إرادة، هذه هي مخلفات الفوضى الناجمة عن الحب.

ظل نائمًا حتى أيقظه أحد الركاب بجانبه...

سأله راجي: هل وصلنا إلى الجديدة؟

فرد عليه: نعم، وصلنا.

أخذ راجي سيارة أجرة إلى مترله، وفي طريقه اتصلت به نورة، وقالت له إن كان بإمكانه أن يخرج ليشرب القهوة.

رد عليها، والتعب بادٍ من صوته: أنا في طريقي إلى المترل، لقد وصلت قبل قليل من الرباط، ويملؤني تعب شديد.

أجابته نورة: إذن لا بأس، اذهب وارتح، وغدًا نلتقي.

رد عليها ضاحكًا: حاضر يا آنسة.

دخل إلى المنزل واستحم، رتّب ملابسه في الخزانة، وأعد كوب قهوة، وجلس يراجع درس الغد، وبقي يراجع حتى حلول الحادية عشرة قبل منتصف الليل.

بعد أن انتهى من المراجعة، توجه إلى فراشه، وأمسك هاتفه، ولم يشعر حتى أرسل رسالة نصية إلى زينب.

انتظر قرابة نصف ساعة ولم تجب، شعر بالاستياء، والأفكار تذهب وتأتي في مخيلته.

أشعل سيجارة وظل ساهيًا في هدوء منزله الوحيد، منزل بارد وكأنه مهجور منذ مدة، هدوء تام يعم أرجاء المنزل، لا من يتكلم معه، ولا من يجيبه.

نهض وراح يدور في المنزل من المطبخ إلى البهو ثم إلى غرفته، لا يدري ما الذي أصابه في هذه الساعة.

عاد ليشعل سيجارة أخرى، لا يدري ما هذا الشعور المفاجئ بالوَحدة، حتى إنه لا يدري ماذا يرغب بالضبط.

تلمّس علبة السجائر ووجدها فارغة، وتبسم قائلًا بصوت خافت: حتى أنتِ...

قرر أن يخرج إلى البقال لشراء علبة أخرى، فتح هاتفه مرة أخرى، ولم يجد أي رسالة واردة.

شعر باليأس والسذاجة، ربما قد ضخّم الأفكار في مخيلته بعد لقائه بها، أو ربما قد أعطته وقتًا للتحدث معها فقط لكيلا تحرجه.

لماذا سيستاء ويُصاب بالإحباط؟

هو فقط أول لقاء وأول الطريق للتعارف بينهما، من الممكن أن ترفض، وأيضًا قد تقبل.

بداية العَلاقات كهذه غالبًا ما تكون كلها بنفس الشعور ونفس ردود الفعل من جانب كلا الطرفين.

أمر بسيط ألا تجيبه على الفور، أو ألا تجيبه بالمرة، ففي نهاية الأمر هو لا يعرفها وهي لا تعرفه، أو أنها أساليب النساء في إسقاط الضحايا في حبهن.

أساليب النساء في تعذيب الرجل عديدة ومتنوعة، ولمعرفتها يجب أن تدرس دروسًا خاصة، كما لو كنت ستدرس الفلسفة أو علم النفس.

هو علم خاص بمعرفة الجنس الآخر ومميزاته وخباياه، والمكائد التي تنجم من تحت رأسه.

لكي تكون المعرفة، يجب عليك أن تقرأ، ولكي تعرف الجنس الآخر، يجب أن يكون لديك عدد مهم من العلاقات التي سبق أن مررت بها، وفي كل علاقة ستكتسب العديد من الأشياء التي لن يستوعبها عقلك، حتى لو أراد أحد أن يشرحها لك، لن تفهم.

التجربة هي أساس المعرفة، هي ببساطة دروس تمنحها العديد من الخيبات والانكسارات والألم، لكن تختلف العلاقات باختلاف الأشخاص كذلك، لكل شخص صفاته وأفكاره، ولا مجال لمقارنة شخص بآخر، لكن العلاقة مع المرأة تبقى غريبة نوعًا ما.

الليل في الشاطئ

لا أدري ما الذي جعلني أخرج في هذا الوقت المتأخر من الليل لأجل جلب علبة السجائر؟

هل هو ابتلاء؟

أم هو حب السيجارة؟

أم هي الوحدة أو الحنين؟

لكن الحنين لماذا؟

الحنين للوطن، للصحبة، للعائلة...

أم هو الحنين للجسد والدفء والمعاشرة؟

الحنين للغير، والتحدث والرفقة، والبعد عن العزلة...

إنه شعور سيئ أن يكون الإنسان وحيدًا، سيئ جدًّا.

وكأنني خرجت أبحث عمّن يؤنسني في وحدتي، أبحث عمّن ينتشلني مما أنا فيه، من وحدة وبرود.

لم أشعر سابقًا بمثل هذا الشعور القبيح، لطالما كنت أحب أن أظل وحيدًا، في عزلة عن العالم والآخرين، بعيدًا عن الصخب والضجيج.

الجو هادئ، والنسيم العليل يبعث البهجة على الروح، ورائحة البحر تضفي على المدينة جمالًا رائعًا وإحساسًا لا يُقاوم.

الشوارع خالية، والهدوء يعم كل الأرجاء، غالبًا ما تجد شخصًا يتجول في هذا الوقت كأمثالي، أو رجال الشرطة وحراس السيارات.

لا تسمع شيئًا غير صوت أقدامك وأنت تمشي.

إنه الهدوء الذي نفتقده في النهار، وتفتقر إليه المدن الكبيرة، الهدوء الذي لا أجد مثيلًا له سوى في الرباط.

عدم سماع ضجيج السيارات وصخب الناس متعة بحد ذاتها، هذا الهدوء يستحق الخروج لأجله في مثل هذا الوقت، والتضحية بالنوم.

لماذا نهرب من الصخب؟

هذا هو واقعنا، إذن لماذا نهرب منه ونهرب من أنفسنا كذلك؟

لماذا نفضل الهدوء عن الضجيج، وفي الواقع نحن المسؤولون عنه؟

الصخب هو ناتج أعمالنا وشغبنا وعشوائيتنا، هو سلوكنا اللامعقول اتجاه الطبيعة.

نهرب إلى الليل، إلى الهدوء والراحة والسكينة...

هل نحن من اختار هذا الواقع الذي نهرب منه؟

أم فُرض علينا؟

أم نحن فرضناه على أنفسنا للبقاء على قيد الحياة؟

حتى الحيوانات في الطبيعة لا تقوم بما يفعله الإنسان بنفسه، ورغم دخولنا في المدنية العادلة، إلا أننا ما زلنا نفتقر إلى الكثير من القوانين والالتزامات، ورغم تمدننا ما زلنا نعيش في حالة الطبيعة، الفوضى تعم كل الأرجاء.

إذن، ما دور العقل في كل هذا الخراب؟

هل سنعيش حياتنا كلها نبحث عن طرق للهروب؟

لم نجد مكانًا يحتوينا كما نريد، ولا روحًا تتقبلنا كما نحـــن، ولم نجد أشخاصًا يشبهوننا في أفكارنا ومعتقداتنا.

فلربما نحن من لم يستوعب حقيقة الحياة وواقعها.

إلى متى سنظل منعزلين عن العالم؟

لم نجد العزيمة لمواجهة الواقع، إذن لماذا نقنع أنفسنا بما نريـــد، وأين نريد أن نكون، ومع من نريد أن نكون؟

هو ليس حلًّا، لكنه الأمان لروحنا التي تتخبط بداخلنا.

إنها سذاجة العيش، لا الواقع سيتغير، ولا نحن سنرتاح.

ظللت أتمشى حتى وجدت نفسي أمام الطريق الفاصـــلة عـــن الرصيف المؤدي للشاطئ، كل البقالات وبائعو التبغ جميعهم أغلقوا، لا سبيل لشرب سيجارة لطيفة في هذا الجو المنعش.

تذكرت أن أحد الباعة المتجولين دائمًا ما أجـــده هنـــا نهـــارًا بالقرب من الشاطئ.

ذهبت إليه، ووجدته ما زال ينتظر هناك مَن رفضهم النـــوم، وعذَّبتهم الأفكار، وأرادوا الهجرة إلى أنفسهم وابتغوا مـــا يســـكن أرواحهم.

أخذت نصف علبة من السجائر، وكوبًا ساخنًا مـــن القهـــوة المعطرة، وجلست بالقرب منه على كرسي خشبي بالي الطراز، كل أطرافه تسمع صداها من شدة تركه في الشمس الحارقة.

جلست هناك، ورحت أتأمل نفسي، وسبب خروجي.

ضحكت كثيرًا بتذكري كلام سعيد عندما قال لي إنني وقعت في الحب.

الكل يحذرنا من مخاطر التدخين والمخدرات، لكن لماذا لم يحذرنا أحد من مخاطر الوقوع في الحب؟

بعدها تذكرت ذلك اليوم الذي تغيّر فيه كل شيء...

يوم القطار...

يوم اللقاء الأول...

اليوم الذي خلّف وراءه التفكير والتفكير...

يوم الوقوع في الفوضى...

اليوم الذي غيّر كامل أفكاري وجعلني أسيرًا لأحداث كانت لتكون مجرد حدث لا فرق بينه وبين أحداث أيامي الأخرى، عندما ساعدت تلك الفتاة في محطة القطار، حدث بسيط يحدث مع الجميع في كل وقت وحين، لكنه غيّر مستقبلي ومستقبلها هي كذلك.

يومها، وقبل مرور شهرين تقريبًا أو أكثر، دخلت حياتي هـــذه الحسناء.

قرابة الثانية بعد الزوال من يوم الأحد، كنت أشرب سيجارة في انتظار صعود الركاب للقطار، ولم أنتبه إلى فتاة كانـــت واقفـــة ورائي وأمامها حقيبتان.

استدرت لأطفئ السيجارة، فوجدتها بالكاد تقوى على حمـــل الحقيبتين.

سألتها:

هل أساعدك؟

ردت بابتسامة: لا تُزعج نفسك.

قلت لها: ليس هناك أي إزعاج.

أخذتُ الحقيبتين وحملتهما وصعدتُ القطار. لم أجد أي مقعد لتجلس فيه، وأنا كذلك.

قالت لي: لا بأس، سأقف هنا...

شكرتني بابتسامة جميلة لطيفة، وأمسكت هاتفها ووقفت أمامي.

كانت أحلى وأرق ابتسامة رأيتها في حياتي.

بقيت أنظر إليها بخلسة من وقت لآخر، وفي لحظة رفعت رأسها ووجدتني أنظر إليها بتمعّن، فتبسّمت وأخفضت عينيها اللطيفتين، ثم عادت لتنظر إلى الهاتف.

بقيت أسترق النظرات إلى ملامحها؛ كانت فتاة في العشرين من عمرها، بشرتها بيضاء وخدّاها مائلان إلى الاحمرار، شعرها بني منسدل على كتفيها يلمع مع بريق الشمس الداخلة من زجاج نافذة القطار، شفتاها رقيقتان ورديتان، ويداها صافيتان بأظافر متوسطة الطول دون صباغة، وجسمها رقيق العود.

كانت تبدو وكأنها عارضة أزياء، ترتدي سروال جيتر وسترة فوق قميص رمادي باهت اللون...

لكنَّ شعوراً ما بداخلي كان يقول لي إنني سبق ورأيتها في مكان ما، لكنني لا أعرف أين ولا أتذكر متى.

بقيت أتمعن في ملامحها لعلّي أتذكر شيئًا، لكن جمالها أخذني بعيداً عن البحث عنها في ذاكرتي، فهي أمامي الآن.

وصلنا إلى محطة الدار البيضاء، ولا أعلم هل كانت مسافرة أو عائدة من السفر إلى مدينتها.

ساعدتها على إنزال حقيبتيها، وكنت أرغب كثيراً أن أكلمها وآخذ رقم هاتفها، لكن الصمت غلبني.

شكرتني كثيراً، وقالت:

هل ستنزل؟

قلت في خاطري: هذه فرصتك للحديث معها، وبقيت أسأل نفسي: هل أنزل أنا كذلك؟

قلت لها: لا، أنا متوجه إلى الجديدة.

شكرتني مرة ثانية وذهبت.

يا ليتها لم تذهب...

يا ليت الوقت توقّف حينما صعدنا من محطة الرباط...

يا ليتني نزلت أنا كذلك وسألتها عن اسمها وتحدثت معها...

يا لسذاجتي... لا أعلم عنها شيئًا، ولا أعلم حتى ما اسمهـــا أو أين تسكن...

يا ليت القطار توقف ونزلتُ لأعود إليها...

لقد فتحت معي باب الحوار، فلماذا لم أقل ما في جعبتي وأبوح بما بداخلي؟

يا لسذاجتي، لم أقوَ حتى على طرح سؤال بسيط!

إن كان الناس كلهم مثلي، فكيف سيلتقي النـــاس؟ وكيـــف ستنشأ بينهم علاقات الحب؟

الرغبة كبيرة، لكن اللسان مقيّد.

جلستُ في مقعد خالٍ بعد نزول بعض الركاب، وأغلقتُ عينيّ في حسرة، ولم تَغِب صورتها عن عينيّ للحظة، كل تفاصيلها رُسمت في خيالي، وضحكتها ما زلت أتذكرها وكأنها ما زالت تبتسم أمامي.

ضحكتُ على نفسي كثيرًا، وعلى سذاجتي أيضًا.

تمنّيتُ يومها لو أنني تحدثتُ معها...

تمنّيتُ من الله أن يجمعني معها يومًا وألتقي بها...

أصبحتُ أتمنى أن أراها في حلمي كل ليلة، ولو كان الحلم سيجمعنا، لنمتُ ما تبقى من حياتي كلها في سبيل أن أراها وألتقي بها.

وأنا جالس في صمت أستذكر خيبتي، قاطعني أحدهم وهو يطلب سيجارة، أعطيته واحدة، ونظرت إلى الساعة، فإذا بها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

تبسمتُ وقلت في نفسي: حتى التفكير فيها يذهب بالوقت، فما بالك بمواعدتها والعيش معها؟

جمعت خيباتي وذكرياتي، وعدت أدراجي إلى المنزل وأنا أشعل سيجارتي الأخيرة في هذه الليلة الجميلة.

دائمًا ما أقنع نفسي بأنها آخر سيجارة في كل يوم، حتى ما ألبث أن أتذكر مذاقها الرطب يدخل في فمي، فيقطع ذلك إقناعي لنفسي، وأعود لأضحي بواحدة أخرى.

سماعها وهي تحترق برقة من أجل إسعادي، وتطاير الدخان أمام وجهي، يجعلني أسيرًا للمتعة التي أعلم أنها، في يوم من الأيام، ستكون سببًا في إصابتي بأحد الأمراض السرطانية.

إنها ملذات الحياة، يصعب على الكثير تركها أو الإقلاع عنها.

لكل منا أشياؤه الخاصة التي ترضي نفسه، ويجب ألا نرغم أنفسنا على تركها، حتى ولو كانت ضارة، فالسعادة تكمن في الأوقات التي نستمتع فيها، لا بطول أعمارنا.

قبل السابعة صباحًا، رن جرس الباب. استغرب راجي، فما من أحد يأتي في هذا الوقت.

ذهب ليفتح الباب، فوجد نورة أمامه تنتظره.

سألها وهو يضحك: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

ردت نورة: هل ستبقى نائمًا؟ أليس لديك درس اليوم؟

أجاب راجي: بلى، لكنها لم تصل السابعة بعد، لقد ســـهرت البارحة ولم أنم باكرًا.

ردت عليه نورة وهي تمازحه: هل هي رواية ما؟ أم هي صاحبة الرواية؟

أجابها راجي بنبرة غليظة: بالله عليك، من ستحب مسنًّا مثلي؟

نظرت إليه نورة بتعجب، وقالت له: هيا تجهَّز، ســـأنتظرك، لا تتأخر.

دخل راجي غرفته وفتح هاتفه، لعله يجد رسالة مـــن زينـــب، لكنه لم يجد أي اتصال أو رسالة واردة.

خاب أمله في ذلك الصباح، وتجهز في غيظ على قدره الذي ما لبث أن أفرحه حتى ترك له كومة من الذكريات يتحسر عليها.

تجهز بسرعة، وارتدى ملابسه، وأخذ محفظته وخرج مسرعًا.

أخذته نورة إلى المقهى المعتاد الذي يذهبان إليه دائمًا، وطوال الطريق وهي تضحك معه عن سبب سهره ليلتها بجمل أقل ما يقال عنها إنها متنمّرة.

قاطعها بأنه ليس لديه الطاقة للضحك.

لم تستغرب من حالته، فهو دائمًا مرة يضحك ومرة يتعكر مزاجه.

دخلا المقهى وطلبا فطورين، وبينما هو ينظر إلى البحر قاطعته نورة:

ما الأمر، ماذا هناك؟

أجابها: لا شيء... فقط وجدت فتاة في القطار ولم أتحدث معها.

ثم شرح لها كل ما دار بينهما في القطار وعندما التقيا في الرباط.

ضحكت وقالت له: لربما لديها ما يشغلها ولم ترد، أو أنها كانت متعبة.

أقنعته قليلًا بكلامها، فتَبَسَّم قليلًا، ثم نزل إلى سيارته ليجلب علبة السجائر من محفظته.

لا رجاء لراجي سوى أن ينتهي هذا اليوم، لينهي حصته ويذهب إلى المنزل لينام حتى يفتح عينيه على اتصال أو رسالة من زينب.

عاد راجي إلى المنزل عند انتهاء حصته ظهرًا، وكان يشعر بتعب شديد، فنام في تلك اللحظة، ولم يستيقظ حتى المساء، وكانت الساعة الخامسة.

استيقظ متعبًا أكثر من ذي قبل، دخل المطبخ وأعد كوب قهوة، وجلس على كرسي في المطبخ، أشعل سيجارة وبقي هناك للحظات يستوعب ما إن كان مستيقظًا فعلًا أم أنه في حلم.

النوم لساعات بعد الظهر يجلب الأرق وآلام الرأس والكآبة، تحس وكأنك خرجت من عملية جراحية دامت ساعات، وآثار المخدر تلعب في رأسك.

لم تكن ليلة البارحة أول مرة يسهر فيها، لكنها أطول ليلة مرت في حياته وهو ينتظر شيئًا ما.

تذكر أنه يجب عليه أن يتصل بعائلته، فقد اتصلوا به مـــرات عديدة ولم يجب.

أخذ هاتفه واتصل بوالدته، فإذا برسالة نصية ترده.

قطع الاتصال بوالدته في الحين، وتعجب قائلًا: إنها زينب!

فتح الرسالة ليقرأها:

«السلام، أنا زينب، كيف حالك راجي؟ لم أجب على رسالتك البارحة، لقد عدت متعبة كثيرًا وتأخرت قليلًا في الرباط، واليـــوم صباحًا ذهبنا لزيارة أحد الأقارب. المهم، كيف حالك؟ ماذا تفعل؟»

هذه هي الرسالة التي كان ينتظرها راجي، هذا ما كان يشغل باله وتفكيره وحرمه من النوم.

لقد استنتج بنفسه استنتاجات لا محل لها من الإعراب، مجـــرد أوهام لا غير.

رسالة واحدة كانت كفيلة بأن تضخَّ المشاعر في قلبه وتفـــرّج أساريره.

هو لا يعرف الظروف التي تعيش فيها، ولا كمية العذاب الذي تعاني منه في منزلها مع عائلتها. نحن نحكم على الإنسان من مظهره، ولا نعي حجم المعاناة التي يشعر بها؛ نرى ما هو ظاهر، ونسمع فقط ما يقول، لكننا لا نسمع ذلك الصخب الذي بداخله، وتلك الأصوات المتضاربة التي لا يشعر بها سوى صاحبها.

مشاعر محطَّمة، وجروح يومًا بعد يوم تزداد تصدّعًا واتساعًا، يقاوم الإنسان في صمت ليرمّم تلك الكسور التي بداخله.

ليست الخسارة أن تموت، الخسارة الكبرى هي ما يموت فينا ونحن على قيد الحياة.

ردّ عليها راجي، وبقيا يتحدثان كثيرًا، حتى قال لها: هل نستطيع أن نتحدث عبر مكالمة هاتفية؟

أجابته: نعم.

اتصل بها راجي، وكان يبدو التوتر ظاهرًا عليه من خلال صوته، وبدأ يتحدث ويجمع كلمات مبعثرة.

قال لها: كنت أريد أن أتحدث معك ذلك اليوم في القطار، لكنني لم أقوَ على ذلك...

تحسرت كثيرًا يومها على ما لم أُقدِم على فعله، ولم تغيبي عن بالي منذ ذلك اليوم، ويوم رأيتك في الرباط أحسست وكأنني رأيت شبحك يتجول قُبالتي.

بقي يتحدث ويلملم الكلمات من هنا وهناك حتى انتهى، فسمع ضحكتها في همسات رقيقة، وكأنها تخفي صوت ضحكتها بيدها.

سكت وبقي يسمع ضحكتها الجميلة التي تدخل أذنه برقة، وهمساتها اللطيفة التي تدخل إلى قلبه بسلاسة فتشعره بالسعادة.

قالت له: لماذا سكتَّ؟ أكمل.

قال لها: هذا كل ما في الأمر.

قالت ضاحكة: هل هذا حب من أول نظرة؟ أم هو إعجاب؟

أجابها: لا أعلم أي شعور هو، ولا أعلم كيف أفسر لكِ ما يدور في خاطري، أو أشرح لكِ شعورًا بالكاد أجد له تفسيرًا لنفسي.

ربما لم يحِن الوقت لما سأقوله، أو قد أكون تسرعت في إبداء مشاعري، إلا أنني لا أرى في إطالة مواضيع كهذه إلا مضيعة

للوقت، فلكي تبلغ هدفًا ما يجب أن تضعه أمام الأمر الواقع، وهذا ما تعلمته من درسي الأخير.

ردت عليه بعفوية: أنا أفهم قصدك جيدًا، وكل ما قلته أثـــار إعجابي، لكن حتى أنا يجب أن أقول لك شيئًا، أو كثيرًا من الأشياء التي أخفيتها طويلًا.

ربما قد يكون هذا اللقاء صدفة بالنسبة لك، لكن بالنســـبة لي كان محاولة رسمها القدر لكلينا، في ظل مجموعـــة مـــن المحـــاولات الفاشلة للتقرب منك أو الحديث معك.

قاطعها متسائلًا: كيف؟ لم أفهم قصدك.

أجابته بتلقائية وهي تتنهد: عندما كنتَ أنت في السنة الثانيـــة من الإجازة، انتقلتُ إلى كلية الاقتصاد، ورأيتك أول مرة عنـــدما كنتَ تتجول في مدينة العرفان مع أحد أصدقائك وأنت تحمل محفظة حاسوبك. كنتُ أنا أمام المقهى المقابل لسكن الفتيات الذي تجلـــس فيه دائمًا، واقفةً مع صديقاتي.

أتذكر جيدًا أنني بقيتُ أشاهدك حـــتى دخولـــك إلى الحـــي الجامعي، وبعدها أصبحتُ أراك دائمًا أو بشكل يـــومي في تلـــك الأماكن. كل تلك المدة التي قضيتها في الرباط لم أقوَ على التحدث

معك ولو لمرة، وبقيت أراقبك من بعيد فقط. قد تقول إنني ساذجة أو غير ذلك، لكن هذا ما حدث.

انبهر راجي مما قالته زينب، وبقي ممسكًا بالهاتف في ذهول تام، حتى قالت له زينب:

راجي، هل تسمعني؟

رد عليها ولسانه لا يقوى على الكلام، والكلمات بالكاد تخرج من فمه:

نعم، أنا أسمعك.

قالت له: هناك الكثير من الكلام والأحداث التي سأرويها لك لاحقًا وفي وقتها كذلك، وعندما نلتقي سأحكي لك كل شيء وأجيب عن كل تساؤلاتك.

أنهيا حديثهما بصعوبة، وكأنهما شخصان مشتاقان للحديث مع بعضهما، مشتاقان للأسئلة والإجابات، مشتاقان لسماع صوت بعضهما البعض لا غير.

أشعل سيجارة في دهشة، وجلس مكانه والحيرة تغلب على أمره، يتساءل: أي نوع من السحر هذا؟ وأي صدفة هذه التي مرّ بها؟ ربما هي ليست صدفة، قد تكون مؤامرة من نوع خاص بالقدر؟

أبعد كل التساؤلات الدخيلة في تلك اللحظة، فلا شيء أفضل من تذكّر صوتها وضحكتها وهما يترددان على مسمعه كموسيقى كلاسيكية فرنسية، كل الأصوات والضجيج والصخب توقّف بالنسبة له، وكأن العالم كله توقف لحظتها.

بعض المواقف تكون أقوى من كل الذي يدور حولنا، تكون أسمى وأرق، وخصوصًا تلك المفعمة بالحب والحنين والشوق:

وكيف للمحب ألا يشتاق وحبيبه البعيد غائبُ؟

ترى الشوق يلمع في عينيه والاشتياق صعبُ،

يعيش آلام الحب والحب مؤلمُ.

تتلاشى كل الأفكار، ويبقى التفكير فقط بالحبيب. لا سيد عليك في تلك اللحظة سوى قلبك، هو الذي يملي ويقرر دون أدنى تدخل منك، فهو المنتصر حينها، ويغلب على مجموعة من الأفكار التي قد تتسبب لك في العديد من الخسائر.

أوليسَت خسائر الحب أعظم الخسائر والانكسارات؟ لكن القلب دائمًا على صواب فيما يتعلق بالحب، قد تخسر وتخسر، لكنك لن تتجرأ على محاسبته. بفضله قد تكون اكتسبتَ الكثير من الذكريات والأحداث والتفاصيل، وبفضله قد تكون تعلمت دروسًا لن تتعلمها لولاه.

ظلّا يتحدثان بعدها كثيرًا، في كل لحظة وحين، وبدآ يتقربان من بعضهما البعض شيئًا فشيئًا، وجدا في علاقتهما الأمان الذي لم يجده كل منهما في حياته، هي لم تجده في عائلتها، وهو لم يجده في واقعه.

وجدا في بعضهما ما كان ينقص كلًّا منهما في حياته. غريبة هي الحياة عندما لا تجد رفيق دربك وصديق روحك، فتعيش عالمًا بعيدًا عن كل ما تشتهي وتتمنى، تعيش حياة المألوف، روتين يبدأ كل يوم وينتهي عند نهايته، ولا شيء جديد يضفي على حياتك الأمل والاستمتاع بها.

هي حياة بلا شغف، مع تراكم العديد من الآمال المخزية والمعاناة اليومية، ولا مكان أو شخص تهرب إليه لينسيك كل التعب الذي تمر به، مجرد تراكمات، ولا شيء ينتهي مع الوقت.

الحب، الدفء، الصحبة، وجود شخص ينسيك كل شيء بمجرد الحديث معه... إنها أسباب كافية لكي يتعلق شخصان ببعضهما، وأسباب كافية للوقوع في الحب.

الكثير من الصدف تمر أمام أعيننا، لكن لا يكتمل منها إلا واحد من المئة، ليس لأي سبب إلا النضج الكافي الذي يميز هذا الواحد عن التسعة والتسعين بالمئة. النضج يُكتسب ولا يُعطى تلقائيًّا لأي أحد، هو نتيجة لمجموعة من التجارب والمعارف التي نمر بها، ونكتسب منها دروسًا ترسخ لتصبح معرفة تؤدي بنا إلى النضج.

هي أحداث وتفاصيل لا يستوعبها إلا من اكتسب عقلًا يفرق بين التفاهة والمسؤولية.

مرت أيام وأسابيع، وأصبح الملل لا يصبّ في علاقتنا. في كل ليلة أصبحنا نتوق للعودة إلى بعضنا البعض، ونغوص في تفاصيل بعضنا البعض، نبحث في خبايا خلفياتنا عن أي توافق أو اختلاف بيننا. في كل ليلة نجد أنفسنا نغوص في أحاديث مطوَّلة، أحاديث يملؤها الكثير من التفاصيل التي تبعث على روحنا البهجة.

في الأيام الأولى لم نكن نتحدث كثيرًا كما هو الحال الآن، كما لو أن الخجل كان يتغلب علينا، مجرد رسائل قليلة لا جديد فيها،

وكأن الأسئلة باتت صعبة علينا. بالرغم من كل ما قالته لي أول مرة هاتف بعضنا فيها، إلا أنها تبدو وكأنها خائفة أو تخجل من الكلام، ولا أعلم كيف أجاريها، فهي ما تزال وكأنها تخرج إلى عالم لا تعرف عنه شيئًا.

لو أنني فعلت مثلها لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن، كانت لتكون مجرد فتاة تعرفتُ عليها وأحببتها من بعيد، وكذلك الأمر بالنسبة لها، لكنتُ ذلك الرجل الذي لطالما أحبته من بعيد أيضًا. لو فعلت مثلها لكنتُ الآن مجرد ذكرى، لا أقل ولا أكثر.

الاختلاف هو بين عقول البشر؛ فلطالما كان هناك شخص خجول يجب أن يكون أمامه شخص مختلف عنه من جميع الجوانب. عقول ترسخت فيها الكثير من الأحداث التي تصعّب على المرء أن يقوى على الدخول في علاقات أخرى.

لم أكن أتصور أن نخوض مثل هذه الأحاديث التي نخوضها الآن؛ رسائل تلو الأخرى، لا انقطاع ولا ملل. كل يوم جديد نسرد تفاصيل أحداث يومنا، كيف مرّ وكيف انتهى، ما فعلناه، ونضحك على طرائف غاية في البساطة، ونبحث عمّا فاتنا في أيامنا التي كنا نمرّ بجانب بعضنا البعض كالغريبين، أو حتى أننا كنا نجلس في الأماكن ذاتها.

بدأ كل هذا الاهتمام في اليوم الذي وعدتها فيه بأن أنام مبكرًا. لم أجد أي حجة لإقناعها بأنني أُبدع في الليل أكثر مما أفعل في النهار. ليس هذا فقط، فهي أجبرتني على تغيير كثير من التصرفات التي لم أكن أنوي يومًا القيام بعكسها أو التخلي عنها. كثير من الاهتمام الذي جعلني أفكر في تغيير الكثير من تصرفاتي السلبية أو المضرّة بي، كالأكل في الوقت، والنوم باكرًا، والاهتمام بصحتي، ومزاولة الرياضة. لم أكن أتخيل يومًا أن أجد شخصًا بهذا الاهتمام تجاهي.

مرت أسابيع وأيام منذ لقائنا الأول، وأصبحنا نلتقي في الرباط من فترة إلى أخرى، وكلما مرت الأيام زادت معها التفاصيل بيننا. أصبحنا نعلم الكثير عن بعضنا البعض، حتى أتفه الأشياء أصبحت محط اهتمام بالنسبة لنا.

علمتُ أنها تحب اللون الأخضر، وأن أشغالها المترلية لا تزيد ولا تنقص عن كونها لا تفعل شيئًا بالمرة، وكيف لها أن تقوم بالأشغال المترلية وحتى أمها لا تقوم بها أصلًا. وما زاد إعجابي أنها تجيد تحضير القهوة وكذلك السلطة بأنواعها؛ ففتيات العائلات الثرية غالبًا ما لا تجد إحداهن تفعل شيئًا أو تتقن القليل، كزينب.

أصبحتُ أغازلها ببساطة. لم تكن كلمة "اشتقت إليك" أو "أحبك" كلمة سهلة، لكنها صعبة للغاية عندما تكون نابعة من القلب. عندما تكون المشاعر صادقة، يصبح من الصعب قول الكلمات اللطيفة التي لا تملّ من سماعها أي أنثى، لكنني كنت مرغمًا على قولها؛ ليس لأجلها فقط، بل بسبب رغبتي في إخراج كل تلك الأحاسيس التي أكنّها لها، والتي تصف علاقتي بها وتشرح سعاديّ بوجودها، وكذلك ضعفي تجاهها.

هي كلمات بسيطة عندما تقرؤها في رواية ما، أو تسمعها في فيلم، لكنها كبيرة عندما تكون أنت الفاعل وهي المفعول بها. وجدتُ نفسي في دوامة الحب والاهتمام التي لا يُطاق البعد عنها.

علمتُ أي نوع من الرجال تفضِّل، أو بالأحرى مواصفات الرجل الذي تتخيله فارس أحلامها. قالت لي يومها إنها تريده حنونًا، طيب القلب، متواضعًا، يجيد الحديث في المواقف التي تتطلب الجدية، مثقفًا، وأخيرًا... يحبها.

أنا لم أجد نفسي في كل ما قالت، وكذلك أي شخص آخر، إلا إذا كان يكذب عليها. فمن المستحيل أن أقول إنني مثقف من الوهلة الأولى، فالثقافة لا تأتي بمجرد قولي "أنا مثقف" أو "سأصبح كذلك". الثقافة لا حدود لها؛ فكلما تعلمتَ شيئًا جديدًا احتجتَ

إلى المزيد والمزيد، والثقافة ليس لها سقف معين أو نوع واحد من المعرفة أو تصنيف محدد.

بالنسبة لي، الثقافة كصيد السمك؛ فكلما اصطدتَ منه، لا ينفد. سآخذ ما أحتاجه اليوم، وأعود غدًا لأصطاد المزيد، فكمية السمك في البحر لا حصر لها. وكذلك المعرفة، كلما تلقيتها، بدت قليلة مقارنة بما هو متاح.

أما بالنسبة للحنان والحب، فلنقل إنني أحنّ إليها، وهذه الكلمة لا تعني شيئًا لها ما لم تشعر بها في أفعالي وتقتنع بها من خلال تصرفاتي. هي من عليها أن تدرك حبي لها. أما طريقة الكلام مع الناس، فهذا مرتبط بالمعرفة والثقافة، وكلاهما يصبان في بئر واحد هو عقل الإنسان، وهذا ما ينتج عنه النضج الفكري.

كان هذا جوابي لها... وظلت صامتة لفترة، لم تجب بكلمة. لا أعلم، أهو لأنها لا تجد قولًا بعد هذا، أم لأنها لا تريد القول أصلًا.

قاطعتُ الصمت قائلًا:

متى تذهبين إلى الرباط مرة أخرى؟

كنتُ متشوقًا لرؤيتها، وكذلك لفتح موضوع الزواج معها وجهًا لوجه. اتفقنا على الذهاب نهاية هذا الأسبوع، بعد نقاش طويل.

لم يتبقَّ سوى يومين، فاستغللتُ صباح الغد للذهاب إلى المدينة لشراء خاتم الخطبة. كان هذا سيكون مفاجأة لقائنا هذه المرة.

ساءت الأوضاع عندها في البيت، وأصبحت في كل مرة تريد الذهاب يناقشونها حتى الصراخ. رفض والدها، لكنها فعلت عكس ما يقول، فجمعت أمتعتها وخرجت متوجهة إلى محطة القطار. استقلت نفس القطار الذي كنتُ فيه، لكن لم يكن في نفس العربة.

لكننا ذهبنا معًا بالرغم من بقائنا واقفَين حتى الرباط. كانت هذه المدينة ملاذنا الآمن وملجأنا الوحيد للحب، ملجأنا للهروب إلى أنفسنا، وترك العالم في الجحيم الذي هم فيه.

ودّعنا بعضنا على أن نلتقي عند السابعة مساءً في المحيط. ذهبتُ إلى المنزل ووجدت الكل في انتظاري، وبقيت معهم حتى اقتراب الموعد، ثم خرجت متوجهًا إلى المكان الذي نلتقي فيه...

وصلت زينب في الموعد تمامًا، وأمسكنا بيدي بعضنا البعض وبدأنا نتمشى. كنا نسير كجسدين يافعين ممتلئين بالرغبة والحنين إلى

بعضنا البعض، جسدين تنبعث منهما رائحـــة العشـــق، تـــائهين في الظلام، لا هدف لنا سوى ألا يمضي الوقت ونحن معًا.

كنا نتمشى وكأن الليل خُلق لنا نحن الاثنين، الأضواء الصفراء وصوت البحر المظلم يضفيان رونقًا وكأنهما جُهّزا لنا نحن فقط.

عاشقان يافعان، لا يتمنيان سوى أن يأخذهما الموت في أحضان بعضهما البعض.

قاطعتُ صمتنا وقلت لها:

من أنتِ يا زينب؟

تنهدت قليلًا وقالت:

أنا أنشودة المطر...

أنا قمر مضيء في ليلة ظلماء...

أنا حبيبتك زينب...

نظرت إليّ بعينيها الواسعتين، وقالت: ومن أنت؟

قلت لها: لا أعلم، ربما أنا الذي يسمع أنشودتك، أو لربما أنا من أنرتِ ليله، لكن كل ما أعلمه أنني حبيبك راجي...

ابتسمت، ووضعت يدها على شعرها وأرجعته إلى الوراء، ليظهر وجهها وتكتمل ملامحها مع الأضواء المنبعثة. فذهبتُ أتأملها، لم تكن سوى طفلة صغيرة لا تعلم من بأس هذا العالم شيئًا، صغيرة كفاية لتجرفها المياه إلى شاطئي، فترسو وتحط رحالها في قلبي.

أمسكتُ يدها ووقفت أمامها وهي مذهولة تستغرب: ما الأمر؟

أخرجتُ الخاتم من جيبي وفتحته قائلًا:

هل تتزوجينني يا زينب؟

اندهشت ولم تعلم ماذا تقول، سكتت وتجمّدت في مكانها، ووجهها أصبح شاحبًا، دمعت عيناها وبرُدت يداها. أحسست برجفتها ودقات قلبها، ولو مرّ أحد بجانبنا لسمعها. فقلت لها وأنا أزعزعها من كتفيها:

ما بك؟

وكأنني أيقظتها من النوم، عادت إلى وعيها وقالت:

راجي... أقبل.

فرحتُ كثيرًا واستدرت في مكاني وكأنما الدنيا قد عانقتني.

بكت وهي ما تزال متجمدة في مكانها، فقلت لها:

ما بك؟ لماذا تبكين؟

قالت: مجرد دموع فرح، لا غير...

بعد عناق طويل، أمسكتُ يدها وعدنا أدراجنا. لم تكن سوى طفلة صغيرة بلغت من النضج ما لم يبلغه أقرانها.

سرنا في طريق العودة والسرور يملأ وجوهنا. هي لم تقوَ على قول أي كلمة حتى وصولنا إلى باب منزل ابنة خالتها. بلغ بها الذهول ما بلغ، فكان السكوت سبيلها للنجاة من أشد المواقف صعوبة. هي ليست بالمواقف الصعبة، لكن بالنسبة لفتاة فهذا موقف بالغ الأهمية.

نحن الرجال نعرف كيف نتعامل مع جميع المواقف، كيفما كانت صعوبتها أو درجة قسوتها، لكن بالنسبة للنساء فهذا مختلف تمامًا. تجد القليل ثم القليل من لديهن الشجاعة للوقوف في وجه مجموعة من المواقف، حتى ولو كانت بسيطة.

ودّعتها وعدتُ إلى المترل، كانت قرابة التاسعة مساءً، ووجدت الجميع في انتظاري للعشاء. قلت لهم إن هناك ضيفًا سيأتي معي غدًا.

بدأ الكل بالأسئلة: أمي تسأل "من؟"، وأختي تستهزئ كعادتها، فلطالما كان يأتي أصدقائي دون دعوة. تناولنا العشاء ونحن نضحك، وقاربت الساعة الثانية عشرة ليلًا.

دخلتُ غرفتي وأرسلت لزينب رسالة قائلًا:

لا تنسي موعد الغداء غدًا، جهّزي نفسك باكرًا.

كانت موافقتها غاية في الصعوبة عندما كنا عائدين إلى المترل، حتى رضخت للأمر الواقع بعد إصرار كبير.

حلّ الصباح واستيقظت باكرًا، خرجتُ للفطور في المقهى مع أصدقائي. كان الجو هادئًا، جو هذه المدينة يبعث على راحة لا توصف وطمأنينة لا تجدها إلا في مترلك.

قاربت الساعة التاسعة والنصف، فودّعت صديقي وذهبت لشراء بعض الأغراض للمترل، وكذلك الحلوى للغداء. عدتُ إلى المترل وكان الكل ما يزال نائمًا. أيقظتُ الجميع ودخلت المطبخ

أعد القهوة، ولم تمضِ دقائق حتى وجدت الجميع مستيقظين، ورائحة القهوة تعبق في كل أرجاء المترل.

جلسنا جميعًا للفطور، وأخبرتهم أن هناك فتاة تعرفت عليها، وهي من ستأتي للغداء معنا للتعرف عليها. كانت أمي وأختي تسألان كيف تعرفتُ عليها ومن أين هي. فرح الجميع، وأصبحت الضحكات تعلو وجوههم.

نهضت أمي من مكانها قائلة: يبدو أن هناك الكثير لفعله اليوم.

تلقيتُ رسالة من زينب بأن نلتقي عند الحادية عشرة في المدينة. تجهزتُ وخرجت، وكنت أنتظرها في نفس المقهى الذي رأيتها فيه أول مرة.

قالت لي إنها تريد شراء بعض الأشياء، فهي لا تريد أن تدخل خالية اليدين. ضحكتُ وأمسكت يدها لنذهب. ذهبت بها إلى بائع الشوكولاتة، ثم بعد ذلك إلى سوق الورود واشتريت باقة ورد، وكأن هذه الفتاة تريد التقدم لخطبتي!

عدنا إلى المترل، وهي ترتعش خجلًا، تصفرّ وتخضر، فتساءلت: هل سيصبح شكلي هكذا عندما أذهب لخطبتها؟

دخلت المترل، والكل يصفق ويزغرد، وهي محمـــرة خجلًـــا. جلست بجانب عمتي، وأختي في الجانب الآخر. سألت الجميع عـــن أحوالهم وهي تخفي قلقها البادي على تصرفاتها، تارة تنظر إليّ، وتارة أخرى تُسقط عينيها أرضًا من شدة الخجل. الكل يوجه لها أســـئلة واحدًا تلو الآخر، تارة أمي، وتارة عمتي، أما أختي فلا تكتفي سوى بالاستهزاء بي.

كان انطباع الطرفين بالنسبة لي كما أريد؛ يبدو أنهم أعجبـــوا بها، لكن في انتظار الطرف الحاسم: عائلتها. كيف ســـأبدو عنـــد ذلك؟ وكيف ستكون ردود أفعالهم وانطباعاتهم عني؟

سارت الأمور على ما يرام، نهاية يوم لطالما فكرت فيه، وبداية جميلة لحياة أخرى، حياتي لوحدي أنا وزينب. لقاء غريب، بتعـــارف غريب، لبداية حكاية جديدة.

بعد الغداء، رافقتُ زينب إلى مترلها، وعدتُ لجمع أغراضـــي لكي أذهب إلى الجديدة، بينما تتجهز زينب هي الأخرى، ونلتقي في المحطة.

كانت عائلتي راضية عنها، وأخذوا فكرة مسبقة عن شخصيتها ومن تكون. حتى زينب فرحت كثـــيرًا لمعاملتهـــا بهـــذا اللطـــف

والاحترام. قالت لي إنها ولأول مرة ترى مثل عـــائلتي، وأحسّـــت وكأنها في مكان لطالما حلمت به، وفي جو عائلي لطالمـــا أرادت أن تنتمي إليه.

جو عائلي لا يخلو من الدفء واللطف، خالٍ مـــن المشـــاكل والنزاعات وكذلك الألم، جو لطالما سمعت عنه فقط ولم تكن جـــزءًا منه. قالت إن هناك فرقًا كبيرًا بين العيش في عائلتها، التي لا مجـــال للدفء وسطها، وبين عائلتي التي كل همها سعادة أفرادها.

كل هذه المشاعر كانت بالنسبة لها مجرد أشياء تسمع عنها، لا وجود لها في أسرتها. لم أكن مهتمًّا بكلامها كثيرًا أو بما تعنيه بهـــذا القول، ولم أكن أعلم أن هذه الفتاة تحمل في داخلها حزنًـــا تخفيـــه بضحكتها الجميلة تلك.

لطالما علمت أن هناك شيئًا تخفيه، حرقة تؤرق قلبها ولا تجـــرؤ على ذكرها، لكن... لماذا؟

كنت دائمًا أريد سؤالها، لكن تغلبني عيناها، ولا أقوى علـــى رؤية حزنها. هؤلاء الأثرياء لديهم تفكـــيرهم الخـــاص ومـــنطقهم الخاص، يرون العالم بمنظورهم الخاص، مقتنعون بما اكتســـبوه، ولا مجال لإقناعهم بغير ذلك.

لكن أين زينب من كل هذا؟ العائلة هي نفسها سواء كنـــت غنيًّا أو فقيراً.

وصل القطار إلى الدار البيضاء، ودّعتها وقلت لهـــا أن تفـــتح الموضوع مع عائلتها لننظر ماذا سيكون جوابهم.

فتاة القطار

زينب، الفتاة ذات الخامسة والعشرين من العمـــر، أو كمـــا أسميها: فتاة القطار.

فتاة، كل ذنبها أنها وُلدت في عائلة ثرية، أو بالأحرى، وُلدت في عائلة لا يهمها سوى المال والسمعة ومستواها في المجتمع.

فتاة وُلدت لأب متسلط وأم مهنية، وأخ لا يهمه سوى السهر وشرب الخمر وصرف مال والديه فيما يريد.

هي خريجة مدرسة الفنون التطبيقية، حاصلة على الإجـــازة في الهندسة المدنية، لكنها لم تكمل سلك المهندسين لأنها لا ترى نفسها في هذه المهنة الذكورية، مهنة فُرضت عليها من قبل والدها.

هي فقط تريد العيش في سلام، بعيدًا عـــن عائلتهـــا الـــتي لا يربطها بهم سوى بطاقة التعريف. منذ طفولتها ربتها الخادمة، الـــتي كانت تناديها "دادا"، وأعطتها من الحب مـــا لم تعطهـــا والـــدتها الحقيقية.

أما أمها، فلا يهمها سوى بروتوكولات العائلة البرجوازيـــة، الأكل مجتمعين على طاولة لا حديث فيها ســـوى عـــن المشـــاريع والسياسة. لا أسئلة عن أحوال بعضهم أو أمنياتهم أو مشاعرهم.

رؤية بعضهم صباحًا ومساءً لا تعني لهم سوى أن الكل بخـــير. أما والدها، فلا يكاد يقنعها سوى بأنها فاشلة، لا تصلح لشيء.

كل ما كانت تتمناه هو أن تستقل بذاتها بعيدًا عنهم، والعيش وحدها، باحثة عن الدفء الذي لم تنعم به منذ طفولتها، والنجاح في حياتها باستقلالية، بعيدًا عن مال والديها أو سلطتهما.

تريد أن تقنع كل من حولها بأنها ستنجح بمفردها، أو بالأحرى تريد إقناع نفسها وإسعاد نفسها بنفسها.

السعادة التي تراها فقط في الأفلام والقصص، والدفء العائلي والحب، هي مشاعر لا تملكها، ولا تُكتسب لأي كان.

لم يكن لزينب أصدقاء، منفردة مع نفسها دومًا وعلى محيطهـــا كذلك. حتى في المدرسة، لا تتعدى حدود الدراسة مع الآخرين. لم يكن في بالها شيء سوى إكمال دراستها، التي لطالما أرادت تغييرها، لكنها بلا مستقبل في مهنة لا تريدها ولا تحبهـــا، فرضـــت عليهـــا لتشتغل في شركة والدها.

فما السبيل للخروج من حياة البؤس التي تعيشها منذ نعومة أظافرها؟

بعد حصولها على الإجازة، أراد والدها أن تعمل معه في مجال البناء، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا. كانت تنوي الذهاب إلى الرباط لتدرس الاقتصاد وتسيير المقاولات.

في اليوم الذي كان من المفترض أن تفرح فيه هي ووالداها، تشاجروا. ساءت الأوضاع في ذلك اليوم الأسود، وبعد رفضها العمل معه، خيّرها بين العمل أو الزواج من شاب يعرفه، صديق للعائلة، أو بالأحرى صديق مصلحة.

كان مهندسًا لديه شركته الخاصة، يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا. بالنسبة لها، لم تكن المشكلة في الشاب، لكن المشكلة كانت تكمن في فرض الرأي عليها.

بقيا يتشاجران حتى أُغمي عليها. حملتها والدتها إلى الطبيب، فقال لهم إنها حالة عصبية، وتحتاج فقط إلى قليل من الراحة. نفسيتها محطمة، ولديها اكتئاب حاد. كتب لها بعض المهدئات، ونصح بعدم الضغط عليها أو فعل أي شيء قد يسيء إلى حالتها النفسية.

أعادها والدها إلى المنزل، دخلت غرفتها وشربت الدواء، ولم تمضِ دقائق قليلة حتى غطّت في نوم عميق. بقيت والدها بجانبها حتى نامت، وراحت تتأملها بنظرات الحزن على ابنتها.

ربما هذه أول مرة تتأملها. أحست بالأسى على حال زينب، وكانت الخادمة وراءها تنظر إلى زينب والدموع في عينيها، وكأنها ابنتها.

قالت لها إن زينب، ومنذ اليوم الذي بدأت تعتني بها، وهي لا تنام جيدًا. كانت دائمًا تنام بجانبها ليلًا، وتستيقظ مفزوعة بسبب الكوابيس التي تراودها في نومها.

في عامها الرابع عشر، كانت تصحو خائفة وتنكمش في فراشها، وتظل تبكي حتى تأتي إلى غرفتي لتوقظني، فتنام بجانبها. لم تكن تقوى على الكلام معكِ أو مع السيد نديم، بعد أن ذهبت إليكِ في إحدى الليالي ولم أكن هنا، وعندما رفض السيد نديم أن تنام بجانبكِ، لم تنم ليلتها بتاتًا حتى الصباح.

عندما أتيت، وجدها في ركن الغرفة، فحملتها ووضعتها على الفراش، وبقيت معها حتى نامت. في كل الليالي التي آتي فيها إليها، أجدها تنادي عليكِ، أو أجدها تبكي بمفردها. منذ ذلك الوقت،

ولغاية الآن، اثنا عشر عامًا وهي في نفس الحالة، ونفس الكـــابوس يراودها.

لم تنسَ مشهد أبيها وهو يضربها في تلك الليلة... اثنـــا عشـــر عامًا من البكاء والكوابيس ليلًا.

تغيّرت تعابير وجه والدتها وهي تنظـــر إلى ابنتهـــا، مســـحت دموعها ووقفت، ربّتت على كتف الخادمـــة بيـــدها في ســـكوت، وفتحت الباب وذهبت إلى غرفتها. وما عساها تقول بعدما سمعت؟ ما من قول يبرّئ عدم اهتمامها بها.

بقيت تبكي في غرفتها، وحينها علمت أنها أنجبـــت، لكنهـــا لم تربِّ، ولم تعطِ الحنان الذي كان واجبًا عليها أن تعطيه. أدركـــت حينها لماذا تنادي زينب الخادمة باسم "دادا". فـــات الأوان علـــى تصحيح ما فاتها بقرب ابنتها. قد تكون امرأة ناجحـــة في عملهـــا، لكنها لم تنجح في عملها الأول والمفروض عليها، لم تـــنجح في دور الأم الحنونة كما نجحت في عملها.

بعد مرور ساعات، اتصلت بمقر عملها وطلبت إجازة أسبوع، لكنهم رفضوا إجازتها في الحال.

في صباح الغد، لم تذهب للعمل، وأغلقت هاتفها بعد العديد من محاولات الاتصال بها من العمل. حضرت الفطور وحملته إلى زينب في غرفتها، وطلبت منها أن تذهبا للتسوق يومها.

استغربت زينب كثيرًا من طلب والدتها. أكملت الفطور وخرجتا، ذهبتا للتسوق وتناولتا الغداء، وتنزّهتا قليلًا، قضتا اليوم كله في التجوال من مكان إلى آخر.

في لحظة، نظرت الأم إلى زينب وهي تتحدث، متمعنة في ملامحها وطريقة كلامها، وشرحها وحديثها في المواضيع التي يتحدثان فيها. علمت حينها أنها أمام فتاة صغيرة لم تكمل العاشرة بعد، وليست فتاة عشرينية مقبلة على الزواج. تحسرت على سذاجتها في ترك ابنتها تكبر بجانبها طوال هذه السنوات دون الإحساس بما تريد وتشعر، عن اهتماماتها وهواياتها.

لكنها عاهدت نفسها أن تعوّضها عمّا مرّ من عمرها وهي وحدها، لكنها لم تعلم أن القلب إذا خلا من الحنان والاهتمام، انقطع حبل الحب تجاه الشخص غير المسؤول.

كيف لهذه العائلات أن ترمي بحنان أبنائها ودفء عائلتها لمصالح دنيوية؟ يولد الإنسان فقيرًا في حالتين:

إما من الناحية المادية، وهذا أمر قدّره الله في خلقه، وإما أن يولد فقير العائلة، وهذا أصعب من الفقر المادي.

للحالة الأولى فرصة الغنى والتغيير، أما بالنسبة للثانية، فلا مجال للتغيير أبدًا، فلا سبيل للعودة بالعمر إلى الوراء.

في ذلك اليوم، أحسّت زينب بالقليل من الاهتمام من طرف لطالما فقدت فيه الأمل بعد سنوات طوال. يوم واحد، أو مجرد ساعات، كانت كفيلة لكي تجبر ذلك الانكسار بداخلها، فجوة لطالما اتسعت مع السنوات.

غمرتها السعادة والفرحة، وكأنها وجدت صديقة للتحدث معها. عادوا إلى المترل وهما يضحكان كصديقتين مقربتين لم تريا بعضهما منذ سنوات.

وجدت زينب والدها جالسًا في الصالة، يشرب قهوته، وهو يتخبط في غيظه. جلست الأم قبالة السيد نديم، أما زينب فصعدت مباشرة إلى غرفتها.

بدأ الأب في الصراخ في وجه زوجته:

أين كنتِ طوال اليوم؟

لماذا لا تجيبين على هاتفكِ؟

ما سبب عدم ذهابكِ للعمل؟

لم تعلم الأم أن زينب تسمع حديثهما. وأي حديث هذا، فالصراخ يصل ليوقظ الموتى من قبورهم.

كانت زينب واقفة في الدرج المؤدي إلى غرفتها في الطابق العلوي، وما أشعل فتيل غضبها سوى جملة قالها أبوها:

هل كنتِ تتنزهين مع تلك الفتاة غير الناضجة، كل همها تفشيل حياتنا؟

صعدت زينب إلى غرفتها، وضعت أغراضها في الحقيبة مسرعة، وهمّت بالخروج. أمسكت السيدة أُلفت بزينب وطلبت منها عدم الذهاب، لكنها لم تستمع لكلام والدتها وخرجت من المنزل.

أخذت سيارة أجرة، لا تعلم إلى أين تذهب. يسألها السائق: "إلى أين يا ابنتي؟" وهي لا تعلم ماذا تقول. بعد بكاء طويل والدموع تتساقط من عينيها، قالت للسائق أن يتجه إلى محطة القطار.

لم يأتِ ببالها سوى الذهاب إلى الرباط عند ابنة خالتها، لكـــن هذه المرة كانت فرصتها لكي تبقى هناك للدراسة.

لم تكن هذه أول مرة تتشاجر مع والدها أو تسمع كلامًا يجرح مشاعرها، ولن تكون الأخيرة طبعًا. فلطالما سمعت كل أنواع الكلام الذي يبعث في قلبها اليأس.

في كل مرة يكون هذا حالها، تدخل غرفتها وتبكي في صمت. لا أحد يمسك بيدها سوى سيدة لا صلة لها بها ولا قرابـــة، حنـــت عليها، وأحسّت بها، وضمدت شعورها المجروح.

لطالما أراد والدها أن تكون تلك الفتاة المطيعة التي لا تـــتكلم ولا تجيب بحرف معترض، فرض عليها طموحها الدراسي ومهنتهـــا وكذلك الزوج المستقبلي.

لكن كل ما كان يمنعها من الطغيـــان في وجهـــه كـــل هـــذه السنوات، هو صغر سنها وقلة حيلتها...

إلى أين ستذهب؟

ماذا ستفعل؟

فالشارع ممتلئ بأضعاف أشباه والدها، ما من أحد يمد لها يد المساعدة بدون مقابل. عالم وحشي ذكوري لا يرحم أحدًا، كيف ستشق طريقها لوحدها دون مساعدة؟

هي ليست الأولى التي عانت، وأشباه زينب بالمئات في الشارع، إما نادلات مقاهٍ أو بائعات هوًى.

بالرغم من خروجها هذه المرة، فهي على علم أنها ستعود ولو طالت الأيام. كان هذا الخروج المفاجئ فرصتها للدراسة في الرباط، بالرغم من أنها على علم بأن والدها لن يوافق، وقد يأتي إليها ويعيدها غصبًا عنها.

سجّلت في شعبة الاقتصاد بالجامعة، ودرست هناك عامين. في هذا المكان الذي يعج بالطلبة، رأت راجي وأحبّته من بعيد. خجلها الزائد كان يمنعها من الكلام معه أو لفت انتباهه.

كتمت سرها في قلبها حتى أنهت دراستها في هاتين السنتين، التي كانت متزامنة مع تخرّج راجي من مدرسة الأساتذة.

عادت زينب لمنزل والديها بعد ذلك، لكنها ظلت تتردد على الذهاب إلى الرباط، حتى اليوم الذي رأت فيه راجي من بعيد، لا تعلم من أين أتى، وإلى أين هو ذاهب.

بالرغم من حُسن هذه الصدفة، إلا أنها ما تزال لا تقوى على الكلام معه، وتركت كل شيء للقدر. فالذي جعلها تراه في الرباط، جعلها تراه ثانية بعد أشهر هنا، فلربما تكون هناك صدفة ما ويلتقيان مجددًا.

لحظات التلاقي دائمًا ما تكون صعبة، حتى في الكلام عنها أو الكتابة عنها. حتى كتّاب الروايات يصعب عليهم الكتابة عنها، كيف يلتقي الإنسان وكيف تنشأ علاقات الحب. فغالبيتهم لا يكتبون سوى عن لحظات الفراق أو لحظات الوداع، لكونها سهلة الحكاية.

ظهر راجي في حياتها بعد أن ملأ العذاب عينيها، وسئمت من كل مظاهر المعاملة القاسية والكلام العنيف الذي يمارسه عليها والدها.

جاء راجي وجلب معه المحبة والسعادة. كانت أول مرة تتعرف على شخص وتدخل في علاقة حب، بعد أن كانت ترفض كل أشكال الصداقة والعلاقات العابرة.

ملأ وجود راجي حياتها بعد الوحدة التي كانت تشعر بها، ومحا كل أشكال اليأس في روحها، وبدّل نظرتها للحياة، وأعاد لها

ضحكتها وابتسامتها التي لم تعرف شكلها يومًا، حتى أصبحت ترى نفسها في المرآة بشغف وأمل.

ساعدها هذا السيد المحترم على التمسك بالحياة وفعل ما لم تكن تقوى على فعله. أظهر لها كل أشكال الاحترام والحب اللذين لم تعرفهما قط حتى من أقرب الناس إليها. وما زاد ثقتها به طلبه الجدي للزواج منها بعد أسابيع من محادثتهما.

أحبته بعد أسابيع قليلة، وتمسكت به كثيرًا، فقد غمرها بالسعادة والحب والاهتمام الذي لطالما حلمت به. أغرمت به وعشقته كثيرًا.

أصبحا يتكلمان كثيرًا، ويلتقيان من أسبوع لآخر بالرغم من بعد المسافة بينهما. تمر الأيام وتزداد التفاصيل بينهما ويزداد الحب، فهي لم تكن تطلب سوى قلب يحتويها كما هي، وأذنًا تصغي إليها، شخص يغمرها بالحب والطمأنينة، تنسى معه كل ما مرت به في طفولتها وحتى يومها هذا، شخص يساعدها ويكون الكتف الذي تضع عليه رأسها وتغفو من دون أحلام مرعبة أو كوابيس.

فاضت سعادتها يوم طلب منها راجي الزواج بشكل رسمي. يومها لم تعلم ماذا ستفعل وماذا ستقول، هل تقبل الزواج رغم

علمها بما ستكون عليه النتيجة بعد ذلك، أم أنها سترفض وتكـــون نهاية هذه القصة هنا؟

تلك اللحظة مرّ أمام عينيها شريط كامل لحياتها منذ الطفولـــة حتى أصبحت شابة يافعة جميلة، شابة بقي لها على الزواج خطوات قليلة.

بماذا ستجيب راجي الآن؟ هناك جوابان لا أقـــل ولا أكثـــر: واحد سيدمر حياة هذا الشاب الواقف أمامها ويعيـــدها إلى نقطـــة الصفر، والآخر، بالرغم من نتائجه، فهناك أمل ولو قليـــل ليكونـــا معًا.

شُلّت حركتها ولم تقوَ على الكلام، وامتلأت عيناها بالدموع وأصبحت باردة جدًا، لكن قلبها أصبح دافئًا وروحهـــا تحـــررت وأُفرج عنها.

عندما ذهبت للتعرف على عائلة راجي، وجدت اختلافًا كبيرًا بين منزلها ومنزل راجي، وعلمت أن الدفء العائلي لا يُعطى وإنمـــا يُكتسب.

دخلت على عائلة لم ترها من قبل ولم يروها قط، ومع ذلك لم يعتبرها أحد غريبة، كل واحد يقوم بأشغاله وكأنها واحدة مـــنهم.

والدة راجي تعد الغداء، وتارة تأتي إلى الصالون للتحدث معهـــا أو مع والده. والد راجي يتحدث معها بلطف ويناقشها، وتارة يتحدث مع راجي عن حرب المغرب العربي، وعمته التي لا تكتفي عن قـــول أشياء مضحكة.

أصابها الذهول يومها، كيف لهم أن يكونـــوا طبيعيـــين لهـــذه الدرجة أمامها، وهي لم تتصرف يومًا بشكل طبيعي أمام والـــدها. يومها جلست تنظر وكأنها تشاهد فيلمًا أمامها.

نظر إليها والد راجي وسألها عن رأيها، تدخل راجـــي لكـــيلا تحرج أمام والده، لكنها قاطعته وعبرت عن رأيها. تعجب راجـــي ووالده مما قالت، وكأنها صحفية تتابع الأخبار يوميًّا.

مرّ ذلك اليوم اللطيف في جو عائلي جميل.

عادت هذه الفتاة إلى مترلها يومها، وتمنت لو أنها لم تعد، لـــو بقيت في ذلك المترل ونامت في هدوء. في القطار سألت راجي عـــن تعاملهم معها، فقال لها إنهم تعاملوا معها وكأنها واحدة من العائلة.

تعجبت كثيرًا لأنها لم تعش يومًـــا واحـــدًا طـــوال الخمســـة والعشرين عامًا كهذا اليوم. عادت إلى مترلها، وكـــل مـــا يشـــغل تفكيرها هو كيف ستقول لوالديها إن شخصًـــا طلبهـــا للـــزواج،

وكيف ستشرح لوالدها وتقنعه، وهو ما لبث يريد تزويجها من شخص يعرفه هو. مع من ستتكلم وكيف ستشرح لهم كل ما حدث؟

دخلت المترل ووجدت أمها في الصالة، عانقتها ورافقتها إلى غرفتها. سألتها أمها عن حالها وكيف أمضت نهاية الأسبوع، فقالت لها: "بخير"، وكل تفكيرها في كيف تنطق بما تريد قوله.

أمسكت بيد والدتها، ونادت الخادمة، وأجلستهما أمامها. أحستا بالقلق، فهذه أول مرة تريد زينب التحدث بشكل رسمي هكذا.

تشجعت وقالت:

أمي، دادا، هناك شاب تقدم لخطبتي...

كانت هذه الجملة كفيلة بأن تزرع الخوف في صدريهما. علمتا حينها أنهما ستخسران زينب بعد أيام أو أسابيع، فهما تعلمان ماذا سيكون رد فعل والدها بعد علمه بما تريد.

سألتها والدتها:

من هذا الشخص؟ أين تعرفتما على بعضكما؟

شرحت لهما زينب كل شيء، وأخبرتهما القصة كاملة بينها وبين راجي. رأت الأم في عيني ابنتها الحب له، وأدركت من طريقة كلامها أنها تحبه ويحبها. فقررت أن تكلم السيد نديم عندما يعود.

قررت السيدة أُلفت أن تقف بجانب زينب هذه المرة، وليحدث ما سيحدث، ففي النهاية ما سيحصل هو المكتوب. دمعت عينا الخادمة وذهبت إلى المطبخ، تبعتها السيدة أُلفت.

قالت الخادمة:

سيدتي، إن علم السيد بهذا فلا أضمن أن تكون الأمور على ما يرام هذه المرة، أرجوكِ افعلي شيئًا...

وبينما هما تتحدثان بصوت خافت، إذا بالسيد نديم ينادي:

أُلفت... أُلفت...

خافت الخادمة كثيرًا وصعدت إلى غرفة زينب وأغلقت الباب، وذهبت السيدة أُلفت إلى الصالون. قاطعت السيد نديم قائلة:

نديم، زينب تريد أن تكلمك، هناك موضوع هام...

تبسم ضاحكًا وقال:

موضوع هام! ومن أين لزينب بالمواضيع الهامة... أنا متعـــب، نتكلم فيما بعد...

فإذا بزينب تدخل بينهما، قائلة:

وكيف لك أن تعلم المواضيع المهمة وأنت لم تفتح حواراً معي قط؟ هل سألت عني يوماً أو أحسست بي؟

قاطعتها السيدة أُلفت:

لا تتحدثي هكذا...

ردت زينب:

وكيف تريدينني أن أتحدث؟ سئمت من صـــراخه في وجهـــي وفرض القوانين عليّ وكأنني أجيرة في شركته. لمرة واحدة اتركوني أتكلم وأقول ما أريد.

رد السيد نديم ببرود وهو يجلس على الأريكة:

قولي، أنا أسمع...

قاطعتها السيدة أُلفت قائلة:

زينب، اصعدي إلى غرفتك واتركيني أتحدث مع والدك...

قالت:

لا يا أمي، أنا من سيتحدث. أنا سأتزوج...

ضحك السيد نديم وقال:

وافقتِ أخيرًا! يبدو أن عقل ابنتي عاد إلى رأسها أخيرًا يا أُلفت.

قالت له:

تقدم شاب لخطبتي، اسمه راجي، وأنا أحبه وهو كذلك...

عمّ صمت رهيب المنزل، وقال نديم:

لم أسمع جيدًا، ماذا قلتِ؟

لقد سمعتني بكل وضوح يا أبي...

نظر إلى زوجته قائلًا:

هل تسمعين ماذا تقول ابنتكِ؟

ثم نظر لزينب بنظرة شريرة تمتلئ بالقسوة:

ستتزوجين بمن أريد أنا، وستفعلين ما أقــول لــكِ بــالحرف، وانتهى الموضوع. ولن أسمع عن هذا خاصتكِ بعد الآن.

أرادت زينب أن ترد عليه، فأَسكتها بصراخه. تــدخلت الأم وطلبت من زينب أن تذهب إلى غرفتها، وأمسكت بيــد زوجهــا وأجلسته.

قالت:

نديم، إن زينب تحبه، وهو شاب لطيف ومستقل بنفسه. علــى الأقل كنتَ تسمعها إلى حين تنتهــي وتجاريهــا، لا أن تصــرخ في وجهها.

سألها متعجبًا:

وهل تعرفتِ عليه أنتِ أيضًا؟

أجابت:

نعم، تعرفتُ عليه من أسبوع، وأجده شابًّا لطيفًا ويحب ابنتنا.

رد عليها:

انظري، لن أوافق على أن يدخل هذا الشخص عائلتنـــا، ولا أريد أن أعرفه، ولن تتزوجه، انتهى الموضوع. ولا أريدها أن تراه، وإن خالفت قراري فسيكون هناك رد آخر، لذا من الأحســـن أن تتعقّل.

أخذ معطفه وخرج. صعدت السيدة أُلفت إلى زينب، ووجدتها غارقة في دموعها، والخادمة تطبطب عليها لتهدأ.

قالت أمها:

سأتزوج راجي، ولو تركني جثة هامدة سأتزوجه. لا أريد منه شيئًا، لا موافقته ولا ماله. سأفعل ما يتطلبه الأمر لوحدي.

قاطعتها السيدة أُلفت:

أريد أن أتعرف عليه في القريب العاجل، قولي له أن نلتقـــي في نهاية الأسبوع المقبل.

وافقت زينب، وتحدثت إلى راجي ووافق بسرور. لكن ما كاد يستمتع بفرحته حتى أخبرته بما حصل.

كانت نهاية الأسبوع التالي هي بداية العطلة المدرسية. حلّ يوم السبت، واستيقظت زينب باكرًا، ووجـــدت أمهـــا والخادمـــة في

المطبخ. تناولوا الفطور جميعًا، وطلبت الأم من نديم أن تخرج للتسوق رفقة زينب، وأنهما سيتأخران قليلًا.

خرجت السيدة أُلفت برفقة زينب متجهتين إلى الجديدة، وبعد ربع ساعة اتصلت براجي وأخبرته أنهما ستصلان في غضون ساعة ونصف. قال لها إنه في انتظارهما وسيرسل لهما موقعه.

كان راجي هناك، تناول فطوره وجلس لشرب قهوته في انتظار وصولهما. كان قلقًا بعض الشيء، ينتابه شعور غريب، وفي كل لحظة يطمئن نفسه أن كل شيء سيكون على ما يرام.

وصلتا في الوقت المحدد، وصعدتا إلى الطابق العلوي. رحّب راجي بالسيدة أُلفت وبزينب، وجلسوا يتكلمون. طلبوا الغداء وتغدّوا وهم يضحكون في جو عفوي. استأذنت زينب للذهاب إلى الحمام، فقال راجي للسيدة أُلفت إن لديها بنتًا رائعة وجميلة. ردّت عليه السيدة أُلفت قائلة:

انظر يا بُني، أنا لست ضد زواجكما، وأنا مسرورة كثيرًا لأن زينب فرحت هكذا، لكنَّ أباها لم يوافق.

تغيرت ملامح راجي واحمرّ وجهه من التوتر. عادت زينب من الحمام، فوجدت راجي متوترًا ولون وجهه متغيرًا. ضحك في

وجهها ليخفي توتره عنها وجلست، فإذا بنـــديم يقـــف أمـــامهم كصخرة شديدة الصلابة. نظروا إلى بعضهم الـــبعض في تعجـــب، وسكت الجميع وظلوا ينظرون إليه.

سأل راجي:

من أنت يا سيد؟

ردت زينب:

هذا أبي...

وقف راجي من مكانه ومد يده للمصافحة، فلم يبادله السلام بتاتًا، بل وأردف إلى زوجته وابنته غير مبالٍ براجي:

اذهبوا إلى السيارة، أريد التحدث معه على انفراد.

رفضت زينب، فنظر إليها بعينيه نظرة ثاقبة، لو أنـــه نظـــر إلى الزجاج لانكسر في لحظته. علمت السيدة أُلفت أن الأمور ستزداد سوءًا لو نطقت بكلمة واحدة، فأمسكت بابنتها من ذراعها وخرجتا إلى الخارج.

قال له نديم وهو يمسح نظارته بمنديل أخرجه من جيبه:

انظر يا...

رد عليه:

اسمي راجي، وأنا...

لكن نديم لم يتركه يكمل كلامه:

انظر يا راجي، أعلم أنكما تحبان بعضكما، وهذا لا يهمني. المهم أنك ستكون عاقلًا. أنت شاب يافع، وتبدو وكأنك تعلم جيدًا خبايا الحياة. ابنتي ما تزال صغيرة ولا تعلم ماذا تفعل. هي فتاة مدللة كثيرًا، فكيف لك أن تصبر على دلالها؟ فقط متطلباتها ميزانية كبيرة. ستتركها، ولن تظل على تواصل معها، ولك ما تريد مقابل إنهاء هذه المهزلة.

انزعج راجي من كلامه وفاض غضبًا، فرد عليه بكلمتين:

تشرفت بمعرفتك...

أخذ هاتفه وقام من مكانه، نظر إلى النادل وأشار إليه بأن يحاسبه لاحقًا. خرج، ووجد زينب تنتظر على باب المقهى على الرصيف بحرقة. نظر إليها في صمت، عيناه فيهما احمرار غريب، وملامحه تظهر وكأنه خرج من مقابلة عمل مرفوضًا. أدار راجي

وجهه واستدار وذهب، وهي تنادي باسمه، وكيف سيسمعها بعد كل ما سمعه؟ أذناه أُقفلت تمامًا.

علمت أن أباها فعل ما كان يريد فعله. نظرت إلى أبيها وهو خارج من المقهى ممسكًا بسيجارة في يده ويده الأخرى في جيبه، ببرود كأنه أبرم إحدى الصفقات المهمة بنجاح. قطعت زينب الشارع إلى الجانب الآخر ووقفت تنظر إلى البحر تبكي وجسدها يهتز من البكاء في صمت، بكاء لا نحيب فيه ولا صوت، مجرد صوت خافت كالأنين، بكاء الخسارة وفقدان الأمل واليأس. كادت أن تسقط أرضًا لولا أن أمسكت بها أمها.

كانت تعلم أن هذا سيحدث عاجلًا أم آجلًا. أمسكت بها وذهبت بها إلى السيارة. نظرت إلى ابنتها وهي تبكي بحرقة، فعانقتها عناقًا طويلًا، لا هو مواساة ولا هو قلة حيلة، بل مزيج من هذا وذاك، وكأنها تقول لابنتها: "هذا ما استطعت أن أفعله، ما بيدي حيلة، سامحيني".

وضعت لها حزام الأمان، وركبت هي الأخرى السيارة، وقادت عائدة إلى الدار البيضاء. كان الصمت طوال الطريق يبعث على الخراب في النفس. مقبرة الحب مليئة بأمثالهما، هي وراجي. لا أمل لهما سوى أن ينصفهما القدر.

وصلتا إلى المنزل، وكان الأب هناك في انتظارهما. أمسك بيـــد زينب وهو يجرها، وأدخلها غرفتها وأقفل عليها الباب، وأخذ منها الهاتف والحاسوب، وما من شيء آخر يأخذه بعد أن أخذ روحهـــا. خرج من دون أي كلام، فمن سيقوى على الوقـــوف في وجهـــه؟ الجبروت والطغيان يفيضان من وجهه.

أقفل عليها سجنها الذي لطالما عانت منه منذ طفولتها، أقفـــل عليها وكأنها مجرمة معارضة للنظام. تركها تبكي وأقفل عليها، ككل مرة يقفل عليها، وكأن المشهد يعاد منذ اثني عشر عامًا.

خيبة الأمل

خرج راجي والغضب يفيض من عينيه وكأنه أمسك بالجرم المشهود، والشاهد هو نديم. نظر إلى زينب وهي واقفة أمام المقهى تنتظر بأمل ألا يكون ما تظنه في نفسها، فنظر إليها نظرة تشرح كل ما يمكن أن يُقال. لا هو يتكلم ولا هي تبكي، والحسرة تملأ عينيهما.

استدار وذهب تاركًا زينب تنادي خلفه، وكأنه سارقها، لكنه سرق قلبها وتركها خائبة الرجاء. لم يوضع راجي في موقف كهذا من قبل، حتى أحب وحدث ما حدث. كان أول شخص في حياته يضعه رهن هذه الإهانات ويتزل من قيمته.

ذهب وهو يتذكر مشهد هذا السيد الذي لا يجعل منه محترمًا سوى لباسه الراقي وهو يهين. لا يعلم لماذا لم يجبه أو يوقفه عند حده. يتذكر سخافته أمامه وهو مقيد لا يقوى على الكلام. هذا هو الحب، يهزك إلى أبعد الأماكن، وفي لحظة يتركك عاريًا متمسكًا بحبل مشنقتك... إنه حبل الندم.

وهو في طريقه للمنزل، مر بجانب أحد متاجر الخمور. لا يعلم كيف دخل إليها أو ماذا سيشتري، لكنه كان يأخذ القنينة تلو الأخرى ويضعها في السلة. إنه مشروب سنة كاملة.

دخل المنزل وأغلق جميع النوافذ، وبدأ يشرب بمجرد دخوله المنزل. كانت هذه أول مرة يشرب فيها بعد أن منعه الطبيب من الشرب ثانية لسنوات. يشرب بشراهة كبيرة وكأنما يشرب العصير، فهل هناك مرارة أشد من إحساسه بفقدان من يحب؟ ظل يشرب على هذه الحال أيامًا، لم يتصل بأحد ولم يتصل به أحد، حتى إنه لا يعلم إن كان هاتفه لا يزال مشحونًا أم لا.

كل يوم يقوم من فراشه ويبدأ بالشرب حتى ينام، لم يعد يعلم متى استيقظ أو متى نام. أصبحت أيامه كلها تفكيرًا فيما حلّ به. تتصل به نورة لكنها تجد الهاتف مغلقًا باستمرار. جاءت إلى منزله لترى إن كان هناك، تدق الجرس لكنه لا يفتح. كان يعلم أنها هي من تطرق الباب، لكنه لا يستطيع فتح الباب أو الجلوس والتحدث مع أي شخص.

سألت عنه في كل مكان، حارس العمارة وكذلك صاحب البقال. كل من تسأله يقول لها إنه لم يره منذ أيام. أدركت أنه ذهب إلى الرباط في هذه العطلة.

مرت تسعة أيام متتالية وراجي مفقود وعلى حالته تلك. بعد تفكير طويل، علم أنه لا أمل له حتى وإن شرب كل مشروبات الدنيا، فقد بلغ من اليأس ما بلغ. لا مفر من الألم، فهذه طبيعة الحياة، كل شيء يأتي بأوانه ويذهب بأوانه، لكن أوانه قد حلّ مبكرًا جدًّا ليذوق مرارة الحياة كغيره.

بعد مرور أحد عشر يومًا، خرج أخيرًا ليرى ضوء الشمس، لا ليكمل حياته، بل ذهب مباشرة ليشتري ما يأكله، ويشتري في طريقه قنينات الخمر. مر على البقال الذي في حيه ليشتري علب السجائر، فنظر إليه البقال فوجده غير الشخص المعتاد الذي يعرفه: عينان سوداوان داكنتان، ووجه شديد الاصفرار، شاحب. بدأ يسأل عن حاله، فقاطعه راجي قائلًا إنه لا يريد الكلام. أخذ ثلاث علب سجائر وخرج من الدكان.

خرج أمام الدكان وأوقد سيجارة، وبدأ ينظر حوله ويفكر: ما الذي أصابه؟ ما هذه الحال التي وصل إليها؟ هل هذه صفات الأستاذ راجي الذي يمدحه الكل؟ هل هذه الصفات تدل على شخص عاقل يفكر؟ تذكر ما كان يقول لتلاميذه، وكيف يحفزهم ويعلمهم البحث عن الحلول.

دخل المنزل وبدأ في الشرب كعادته، لكن هذه المرة ليجد حالًا صائبًا يخرجه من حالته، يرضيه ويرضي حبيبته.

وضع نفسه أمام خيارين: إما أن يستسلم للقدر أو يواجهه، لكن كيف؟

إن استسلم، فتأنيب الضمير سيظل يلاحقه طوال حياته. لعنة الحب لا مفر منها، فكيف سيضحي بحياة حبيبته؟ حتى ولو تقبّل الاستسلام، ماذا سيكون مصيرها؟ لم يتبقَّ له سوى أن يواجه القدر ويجعل له بصيصًا قليلًا من الأمل، حتى ولو لم ينجح الأمر، فعلى الأقل يكون قد فعل شيئًا من أجلهما.

قرر الذهاب إلى منزل زينب ومواجهة السيد نديم، حتى وإن رفض ثانية، وهذا أمر لا يفكر فيه، فسيخبر زينب بالذهاب معه أو أن تستسلم لأبيها... وهذا ما فعله.

لم ينم الليل كله، غارقًا في التفكير في نتائج ما سيفعله. أسئلة تلو أخرى، وضجيج مستمر في الرأس.

صبيحة اليوم التالي، كان ينتظر طلوع الشمس لكي يذهب إلى الدار البيضاء. اتصل بنورة وأخبرها أن يلتقيا في نفس المقهى عند الساعة التاسعة. استحم، وارتدى ملابسه، وخرج.

التقيا في المقهى في الوقت المحدد. وقفت أمامه مذهولة: عينان منتفختان من قلة النوم، وسواد داكن يحيط بهما من شدة الإرهاق، سيجارة تلو أخرى، وتوتر ظاهر على وجهه. طلب منها السيارة، وأخبرها أنه سيرجعها لها في المساء. وافقت وهي تسأله:

ما الأمر؟ ماذا بك؟ أين كنت طوال هذه المدة؟

أخذ المفتاح واقفًا في مكانه وقال لها:

سأشرح لك كل شيء عندما أعود.

توجه إلى السيارة وانطلق مسرعًا باتجاه الطريق السريع، والأفكار تدور في رأسه: ماذا إن لم توافق زينب على الذهاب معه؟ ماذا سيحصل بعد ساعة من الآن؟ ما نتيجة ما يفكر في فعله؟

وصل إلى مترل زينب بصعوبة، متتبعًا طريق الذهاب إلى موقعها في خريطة الهاتف. دق جرس الباب، ففتحت الخادمة، وسألته:

من أنت؟

أجابها باللهفة:

أنا راجي، وأريد رؤية زينب...

وضعت الخادمة يدها على فمها، قائلة بصوت خافت والخوف في عينيها:

أرجوك، اذهب من هنا. سيأتي السيد نديم في أي لحظة، ولا أتمنى أن يراك هنا.

رد عليها:

لن أذهب إلى أي مكان، سأنتظره هنا.

ونادى بصوت مرتفع:

زينب! زينب!

كانت السيدة أُلفت بجانب ابنتها، فإذا بزينب تأخذ شهيقًا طويلًا وكأنها عادت من الموت. سمعت راجي ينادي عليها، وهي بالكاد تقوى على فتح عينيها. ركب الرعب في قلب السيدة أُلفت، ونزلت مسرعة إليه. علمت أن الأوضاع ستزداد سوءًا إن عاد نديم ووجده هنا. طلب منها رؤية زينب، لكنها رفضت وأخبرته بأن يذهب.

أمسك بيدها وترجاها كثيرًا. نظرت الأم في وجهه وهو في تلك الحالة التي لا تتمناها لعدوك، وتذكرت ابنتها مغمًّى عليها، لا أكل ولا شرب. أدخلته المنزل، وقالت له أن يرافقها إلى غرفة زينب.

فتحت الباب لراجي، فدخل الغرفة. وجد زينب مستلقية على سريرها، لا تقوى حتى على رفع يدها، جسد هزيل ووجه شاحب. طلب من الخادمة أن تجلب كأس ماء به سكر، وأشربها إياه لتمتلك من الطاقة ما يمكنها من استعادة وعيها.

أخبر السيدة أُلفت بأنه سيأخذها من هنا. ترددت ورفضت، لكنها حين نظرت إلى ابنتها، فكرت أنه إن تركتها تذهب فعلى الأقل ستعود الحياة إليها، أما إن ظلت هنا فستبقى مسجونة طوال حياتها، هذا إن لم تفعل شيئًا في نفسها.

نطقت زينب بصوت خافت، وعينين شبه مغلقتين:

أمي، دعيني أذهب... أرجوكِ.

كان هذا الرجاء كفيلًا بأن يدخل في قلب الأم الرحمة اتجاه ابنتها، فوافقت وهي تبكي، وجرّت راجي إلى خارج الغرفة.

جمعت الخادمة أمتعة زينب وأخرجتها إلى السيارة. ابتعد راجي عن الكلام مع السيدة أُلفت، وحمل زينب بين ذراعيه وأخرجها إلى السيارة.

أخذ راجي زينب من منزل أبيها وكأنه يخطفها، لم يكن يريد هذا الحل، لكن القدر أجبره على تقرير مصيره ومصير حبيبته. ماذا كان سيحل بهذه الفتاة لو لم يأتِ في هذا الوقت؟ ماذا لو تأخر قليلًا أو نسي أمرها وتركها كما قال والدها؟

ما إن ابتعدا عن المنزل حتى سمع زينب تقول:

ماء... ماء...

أوقف السيارة في الحال، وركض إلى البقال لجلب الماء. شربت القليل، ثم غفت مرة أخرى. أغلق الباب عليها، ووقف بجانب الرصيف ينظر إليها من النافذة.

سحب سيجارة من جيبه، وتنهد سائلًا نفسه:

هل ما أفعله هو الصواب؟ ما هذه الحالة المزرية التي أصابت هذه الفتاة؟ وما هذه الملامح الجافة التي تظهر عليها؟ أخشى أن

أكون قاتل هذه الفتاة إن ماتت. وهل ستكون سعيدة معي؟ هل بإمكاني إسعادها كما قال والدها؟

أسئلة كثيرة تدور في خاطره وهو يشرب سيجارته، ونظراته كلها حسرة على حبيبته التي ما لبثت تفرح قليلًا حتى غمرها الحزن ثانية. ألم يكن للقدر أن يرسم لهما نهاية غير هذه؟

عندما يستوطننا اليأس ونُخيَّر بين العائلة ومن نحب، نجبر على تقرير مصيرنا لوحدنا، إما الضعف والاستسلام أو فعل ما نستطيع فعله وتحمل النتائج كيفما كانت. قد يكون الاختيار صعبًا، لكن لا بد من الوقوف في وجه القدر ولو كلفنا الثمن حياتنا.

لا هي البداية ولا هي النهاية. نتمنى أن نكون في الجزء الأخير من الحكاية. لم نعد نقوى على المزيد من الألم. لقد عانت هذه الفتاة كثيرًا، ويكفيها حزنًا ما ذاقته كل هذه المدة من حياتها.

هناك لحظة واحدة فاصلة بين السعادة والتعاسة في حياتنا كلها، لحظة لن تعود بعدها الأمور كما كانت من قبل، لحظة نُخيَّر فيها بين اثنين، ولكل منا ما يختار. فقط يجب علينا ألّا نندم على نتيجة القرار الذي اتخذناه، فالعودة بعده مستحيلة لا محالة.

كنقطة بين الحياة والموت، نقطة فاصلة بين السعادة واليأس والندم: إما أن يتحول فيها الإنسان إلى شبح، حيث الحياة بعدها عذاب، أو أن يعيش ما هو مقدر له أن يعيشه.

أخذ راجي الطريق السريع باتجاه الجديدة، وكل همه أن يصل بسرعة. اتصل بنورة ليعلمها أنه آتٍ وسيمر على إحدى المصحات للاطمئنان عليها. أرسلت له نورة موقع إحدى المصحات، وقالت له إنها تنتظره هناك. وصل إلى المصحة وأدخل زينب.

جلسا ينتظران لبضع دقائق حتى خرج الطبيب ليطمئنه. كانت أعصابه متوترة جدًا، فقال له الطبيب إن حالتها سيئة، فهي لم تأكل منذ أيام، وإن مستوى السكر في الدم منخفض جدًّا، ويمكنه أخذها عندما ينتهي المصل وتستيقظ.

خرج راجي إلى المقهى المجاور للمستشفى برفقة نورة، وشرح لها كل ما حدث هذه الأيام. استغربت كثيرًا مما حدث. أخبرها أن عليه الذهاب إلى الرباط ليكتب كتابهما هناك، فمن المستحيل أن تظل برفقته بلا سبب، وإلا سيستغل أبوها الأمر ويتهمه بالاختطاف.

أخرج هاتفه واتصل بصديق له ليبدأ بإجراءات الـــزواج وأن يسرع في الأمر. وافق صديقه على طلبه وأرسل له الوثائق المطلوبة.

عاد راجي إلى المستشفى للاطمئنان على زينـــب، ودخـــل إلى غرفتها، وأمسك بيدها. أحس بشعور غريب وكأنه يمسك يدها بعد سنوات. يدها ملساء وخفيفة، شديدة الشحوبة، وكأنها في أيامهـــا الأخيرة بعد مرض عضال. وضع وجهه على يدها وأغلـــق عينيـــه ونام. إنه النوم المفاجئ، النوم الذي يأتيك بعد النجاح، نام وكأنـــه ينام في حضن أمه.

استيقظت زينب بعد ساعات من النوم، ووجدت راجي نائمًـــا على يدها. لا تعلم أين هي أو ماذا تفعل هناك. أحس راجي بيـــدها تتحرك تحت وجهه، فاستيقظ واحتضنها. وما كادت تبدأ بالبكـــاء حتى أمسك وجهها بيديه وقال لها:

منذ هذه اللحظة، لا بكاء بعد اليـــوم، لا حـــزن. الســـعادة تنتظرنا، والفرح في طريقه إلينا. لا تبكي، فقد بكيت كثـــيرًا فيمـــا مضى. من الآن فصاعدًا، فقط أنا وأنتِ والحب رفيقنا.

وضع رأسها على صدره وبدأ يربت على كتفها، حـــتى جـــاء الطبيب ومعه نورة.

قال لها وهو يضحك:

لقد تحسنتِ الآن، بإمكانك الذهاب، لكن لا تعودي إلى هنـــا مرة أخرى.

أردفت برأسها قائلة:

حاضر.

وهي تنظر إلى راجي ممسكة بيده، نظر إليها هو الآخر بنظرات مليئة بالفرح. قدّم لها نورة، صديقته التي لطالما حكى عنها.

أكملت زينب المصل، وسمح لها الطبيب بالمغـــادرة. أركبهـــا السيارة في الخلف، وجلس بجانبها. ساقَت نورة نحو المترل. وصـــلوا إلى الحي، واشترى بعض الأغراض من البقال. دخلوا المترل، وأدخل زينب إلى غرفة النوم مباشرة لترتاح.

استأذنت نورة للذهاب على أن تأتي للاطمئنان عليهـــا مـــرة أخرى.

جلس راجي بجانبها وهو يمرر يده في شعرها لتنام، ينظر إليهـــا وهي مغمضة العينين، بدت وكأنها طفلته التي تركتها أمها وذهبت،

طفلة لا رغبة لديها سوى النوم في أحضان والدها، وتشعر بحنانه وحبه لها. نامت وكأنها لم تنم من قبل هكذا.

إنها الراحة بوجود من تحب، الطمأنينة التي لا يمتلكها سوى من له القدرة على إعطائها.

خرج راجي إلى الصالة وأقفل باب الغرفة بهدوء، أعد قهوته وجلس يحتسيها مع سيجارة. كانت لذّة تلك السيجارة مختلفة عن باقي الأوقات، كانت ممزوجة بلذّة النجاح.

إنه حب المتعة هو ما لا يتركه يفكر في الإقلاع عنها. لكل حب متعته ومرارته وأعراضه التي تأتي مع الأيام. حب الشيء الذي يرضي الروح هو ما يجعل الإنسان يرضى بالألم.

الكل يحذرنا من مخاطر التدخين، فلماذا لم يحذرونا من مخاطر الوقوع في الحب؟ عواقب الحب كثيرة، لا يصبر على ألمها سوى العاشق الولهان.

يقال إن القهوة كالحب، كلما اشتدت مرارتها زادت لذتها ومتعة شربها. في كل رشفة، تتسلل إلى فمك، فتتحسس المرارة كلما حرّكت لسانك. المرارة مع اللذة تعطي نكهة لا يعرفها سوى من يحبها.

كذلك حبه لزينب، في شهور قليلة تركه يختار كما يختار شارب القهوة قهوته.

كل هذا جعله يتساءل عن مصير زينب لو لم يدخل حياتها، أو لو أنه تركها كما قال والدها له. ماذا سيحل بها لو أنه تركها مسجونة في منزلها؟ هل سيكون ساذجًا ويختار تركها على حساب سطوة والدها؟

الضعف يكمن فينا وكذلك السذاجة. صعوبة الوصول إلى مبتغانا تجعلنا ضعفاء أمام تقرير مصيرنا، مصيرنا الذي دائمًا ما يكون مربوطًا بأشخاص يكبحون طموحنا ورغبتنا في إسعاد أنفسنا. إن كنا مرغمين ومسيرين فنحن عبيد، والعبيد لا يحق لهم تقرير مصيرهم. إما أن نكون متمردين، أو نكون ساذجين ومرضى بحياة الذل والعبودية.

زواج راجي وزينب

الحب، الخوف، السعادة، المرض، الموت... وها هي أتت تلك الليلة التي يحلم بها راجي وزينب. كانت ليلة لا يُقال عنها سوى إنها ليلة العمر، ليلة مصيرها الزواج.

ليلة مفعمة بالحب والسعادة بوجود كل الأحبة والأصدقاء. السعادة التي نشعر بها بعد تعب طويل، ونحس بها فقط عند نجاحنا في امتحان صعب. حلم سنين، وتعب أشهر وأيام، امتحان حبيبين بانتصارهما على كل المحن والصعاب التي مرت في طريقهما. إنه انتصار على القدر.

إنها وبكل معانيها ليلة الحلم والوعود.

ها هي هذه الفتاة ترقص بحرية وسط عائلتها الجديدة، بلا قيود، ترقص وكأنها طائر فرّ من القفص ليغرد فوق أغصان شجرة مرتفعة جدًّا. ها هي ترقص بسعادة غامرة، وضحكة تملأ وجهها الرقيق. إنها ابتسامة الفوز والحرية أيضًا. سعادتها في هذه الليلة قد لا تُرى، لكن يمكنك أن تراها في عينيها، في ضحكتها وتصرفاتها. خفقان قلبها من فرط الفرح يكاد يُسمع أكثر من الموسيقى، تكاد روحها تخرج من جسمها من الفرح لترقص براحة أكبر.

الكل سعيد بلمّ شمل هذين الشابين، فرحون بدخول هذه الفتاة حياتهم لتزيدهم فرحًا وحبًّا.

وهم يرقصون في فرحة تسرّ القلوب والأنظار، حتى رن هاتف راجي. فتح راجي الرسالة، ونظر إلى زينب وهمس في أذنها لتجلس في مكانها. أغمض عينيها وكأنه يستعد ليريها مفاجأة ما، وأشار إلى أخته لتفتح الباب.

ما إن فُتح باب المنزل، وأزاح يده عن عينيها، حتى رأت والدتها وهي تأتي صوبها فاتحة ذراعيها لمعانقتها، وعيناها ممتلئتان بالدموع، وفي وجهها مزيج من الفرحة والحنين لابنتها. نظرت زينب إلى راجي بتعجب، لم تصدق ما رأته عيناها، وقفت وجرت إلى أحضان والدتها وكذلك مربيتها، جرت وكأنها طفلة صغيرة تنتظر والدتها العائدة من السفر.

عانقت أمها بفرحة زادت فرحة زواجها سعادة أكبر. أحست بالراحة والرضا بعد مفاجأتها تلك، عادت زينب نحو راجي وعانقته بحب وكأن هديته لها باهظة الثمن. وهل من شيء أغلى من رؤية أمها في ليلة فرحها؟ ما كانت تتخيل مجيئها حتى وإن طلبت منها ذلك. صافح راجي يد السيدة أُلفت وشكرها على مجيئها.

عاد الجميع للرقص من جديد، وكأنه فاصل إعـــلاني لفـــيلم مشوق: فيلم راجي وزينب، الفيلم الذي لطالما انتظر نهايته السعيدة كل شخص في هذه العائلة، الشريط الرومانسي الذي يحكي عـــن فتاة القطار وعاشقها حامل الحقائب.

انتهت السهرة، وودع الجميع الزوجين. الكل يعانقهما بفرح ويتمنى لهما حياة زوجية حافلة بالسعادة والحب.

تقدمت السيدة أُلفت إليهما، ونظرت إلى راجي وقالت له:

هذه ابنتي الغالية بين يديك ومعك من الآن فصاعدًا. لا تحزنها، فقلبها طيب ودموعها غالية ومشاعرها رقيقة لا تقوى على الحزن. قدم لها من السعادة ما لم أقدمه لها أنا فيما مضى.

عانقت ابنتها عناقًا وكأنه الأخير، وودعهما الجميع بســـعادة وفرحة. توجه راجي صوب الباب للخروج ممسكًا بيـــد زينـــب، والزغاريد تملأ الأرجاء.

ركبا السيارة متجهين إلى الجديدة، والسعادة تغمر قلبيهما، نحو حياتهما الجديدة في بيتهما الخاص، حياة تمنياها شهورًا وأيامًا.

كانت هذه حكاية هذين الحبيبين للفوز ببعضـــهما الـــبعض، وحكاية المعاناة والحزن والتمني والحلم في أن يجتمعا في الحلال. إنها سُنة الحياة وغريزة الدنيا، الغريزة التي زُرعت بداخلنا من أول يوم لنا في هذه الحياة.

مرض راجي

ثلاث سنوات من الحب...

السعادة...

الاحترام...

ثلاث سنوات مرت مرور الكرام، وكأنه لم يمر على زواجنا سوى أسبوع. هذه السنوات كانت كفيلة بأن تجعل كل ذلك الحب الذي جمعنا في محطة القطار يتحول إلى مودة وراحة. ما زلنا نتذكر ذلك اليوم وكأنه الأسبوع الماضي، ونضحك على بعضنا. تزداد الأيام ويزداد الحب أكثر فأكثر، والعشق في قلوبنا يكبر.

كل يوم أذهب إلى المدرسة وأنا أشعر كأني أترك طفلة صغيرة وحدها في البيت. كل يوم أعدّ الدقائق والساعات لأعود إلى زينب، إلى حبيبتي الغالية.

طفلتي التي تركض إلى باب المترل لتستقبلني وكأنني سأجلب لها الحلوى، طفلتي التي تنتظر رجوعي للعب معها كل يوم.

تفاصيل زواجنا طفولية إلى حد ما، بسيطة كبساطة اللحظة التي جمعتنا، تفاصيل لا أملّ من تذكرها وأنا ذاهب للعمل حتى عودتي للمنزل، لتبدأ بعدها تفاصيل أخرى.

في إحدى الأمسيات، وأنا أدخن سيجارتي في الباحة الخلفية للمنزل شارد الذهن، أتت ويداها ملطختان بالدقيق، ووضعتهما على وجهي وفرت مسرعة إلى المطبخ. تبعتها وأنا أجري وراءها، وصار كل منا يسكب الدقيق على الآخر. في كل مرة تجدني جالسًا هكذا، تأتي وتشوش عليّ تأملي، وكأنها لا تريدني أن أشعر بحب آخر غير حبها، وأن تكون سعادتي مرتبطة فقط بسعادتها. في كل مرة تنزع خلوتي مع السيجارة، حتى أصبحت لا أدخن في المنزل إلا في اللحظات التي تكون فيها نائمة.

هذه التفاصيل الصغيرة هي الفارق بين الزواج عن حب والزواج فقط من أجل الزواج. وها أنا أنتظر حلول الثانية عشرة ظهرًا لتنتهي هذه الحصة، وأذهب إلى حصتي الثانية... إلى حبيبتي الغالية.

أحيانًا نسأل أنفسنا: من أين تأتينا كل هذه القدرة على تكملة الطريق؟ من أين تأتينا القوة على أن نقوم من فراشنا ونبدأ من جديد؟ إنها الغريزة... إنها دوامة الحياة. الحياة التي نحياها ونحن في

قمة سعادتنا وحزننا، نعيشها بتفاصيلها وأحداثها، وكل ما يبقينا قادرين على المقاومة هو الأمل.

الأمل في حياة أفضل وتغيير الحاضر، أمل في مستقبل أجمل.

في أحد الأيام، وأنا أتحدث مع المدير، قال لي إن هناك أستاذًا يريد الانتقال إلى الجديدة. فرحت كثيرًا بهذا الخبر السار، لكن ما زال هناك أشهر على نهاية السنة الدراسية. ما إن انتهيت من حصتي حتى عدت إلى المنزل وأخبرت زينب، ففرحت هي أيضًا، لأننا لم نرد البقاء هنا، ودائمًا ما كنا نفكر في الاستقرار هناك، وهذا ما منعنا من الإنجاب كل هذه السنوات.

اشتريت شقة في سهل الجديدة، كانت قريبة من الثانوية التي كنت أدرس فيها، لتكون جاهزة في الأشهر المتبقية، فننتقل إليها مباشرة عند نهاية السنة الدراسية.

لم يتبقَّ سوى خمسة أشهر ونعود إلى الرباط، المدينة التي لطالما أحسست فيها بالانتماء دون باقي المدن الأخرى.

في هذه الأيام، أصبحت تظهر عليّ آثار غريبة، أحاسيس لم أكن أشعر بها سابقًا: الإجهاد، والإحساس بالتعب كثيرًا، وحرقة المعدة التي لا تفارقني طوال اليوم، وآلام في الصدر. أصبحت بالكاد

أقوى على إنهاء حصتي كالمعتاد، وفي بعض الأحيان تأتيني نوبات إغماء والشعور بالدوران أيامًا تلو أخرى، تعب يزداد وآلام ترتفع يومًا بعد يوم.

لم أشأ أن أخبر زينب بما يحصل لي، ولم أذهب إلى الطبيب حتى. أقنعت نفسي بأنها أعراض التعب وقلة النوم.

في أحد الأيام، أُغمي عليّ في منتصف الحصة، فذهب تلميذ لإخبار المدير. لم أشعر بنفسي إلا وأنا في المستشفى، وحولي المدير وزينب ونورة، وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة صباحًا.

طلب الطبيب مني بعض التحاليل في أقرب وقت ممكن. لم أعر الأمر اهتمامًا، وراح الطبيب يتكلم مع زينب والمدير، بينما بقيت معي نورة تسألني:

منذ متى وأنت تشعر بهذا؟

أجبتها: لا أعلم، في بعض الأحيان فقط...

قالت: وكيف تشعر حينها؟ صف لي؟

أجبتها: بالله عليك، هذه مجرد نوبات تعب لا غير...

سمعتني زينب، ورمقتني بنظرة يملؤها الغضب، وعادت لتستمع إلى الطبيب. قالت لي نورة إنها تعرف طبيبًا صديقًا لها يمكننا الذهاب إليه لإنجاز التحاليل. وفي وضعي هذا، بين ضغطتين، لم أقل إلا: نعم... وسكتُّ.

ذهبنا لإنجاز التحاليل الطبية بعد خروجنا من المستشفى، ومررنا على أحد المطاعم للغداء. أحسست أن زينب ما تزال غاضبة، بالكاد تنطق بجملة ونحن نتحدث. كنت مترددًا في شرب سيجارة بعد الغداء، لكنني لم أرد أن أزيد الأمر سوءًا مع وضعي هذا أمام زينب.

انتهينا من الغداء وعدنا إلى المنزل. قلت لنورة أن تدخل لترتاح، لكنها لم ترغب، وذهبت بعد الاطمئنان على زينب.

قلت في نفسي إنه بمجرد دخولنا ستبدأ زينب بالصراخ لعدم إخباري لها بأي شيء سابقًا، لكنها دخلت غرفة النوم وجلست تبكي واضعة وجهها في الوسادة، وزاد نحيبها كطفلة وبخها والدها. لم أفهم سلوكها، أو ماذا أصابها فجأة، من امرأة غاضبة إلى طفلة تبكي في الفراش. جلست بجانبها وأمسكت بها، ووضعت رأسها على كتفي وسألتها:

ماذا هناك؟ ما بك؟

ردت: لا شيء، لا أريد سماع شيء منك.

قلت لها: لن أتركك هكذا حتى تتكلمي.

ردت قائلة: سبق ووعدتني بألا تخفي عني أي شيء، وها أنت ذا لم تقل.

تأسفت كثيرًا، ومسحت دموعها.

ردت: ماذا سيفعل أسفك الآن؟ ماذا سيتغير؟ ماذا لو كنت مريضًا فعلًا؟

قلت لها: لا تخافي، إنها مجرد افتراضات لا غير، وغدًا سيتبين كل شيء عندما نأخذ التحاليل.

حلّ يوم الغد، وجاءت نورة في الصباح. ذهبنا لأخذ التحاليل والعودة للطبيب.

أخذنا التحاليل إلى الطبيب، ففتح الظرف وبدأ يقرأ، وهو ينظر إليّ ويعود للقراءة مرة أخرى حتى انتهى، ثم وضع الأوراق جانبًا وسألني:

هل كنت تشعر بهذه الآلام منذ صغرك؟

قلت: لا.

وهل هناك شخص من عائلتك معه مرض وراثـــي؟ أو كنـــت تتعاطى الكحول كثيرًا؟

قلت: لا هذه ولا تلك، أقلعت عن الكحوليات منذ أن كنت في الجامعة، منعني الطبيب من الشرب، أي منـــذ ســـبع أو ثمـــاني سنوات.

تنهد قائلًا: لقد تبين أنك مريض بسرطان الكبد.

نظرت إلى زينب في ذهول، وسألته: كيف ذلك يا دكتور؟

أردف قائلًا: لقد أصبت بنوع من سرطانات الكبد التي يصعب التعافي منها، بل من غير الممكن أن تُعالج. هذا النوع ينـــتج عـــن تعاطي الكحول بكثرة أو الأدوية المنبهة أو المخـــدرات كـــالهيروين والحبوب المخدرة. ويصاحب هذا المرض أعراض اصفرار البشـــرة، والغثيان، وقرحة المعدة المزمنـــة، وآلام في جانـــب الـــبطن تحـــت الأضلاع.

تجمدت في مكاني وهو يتكلم. في لحظة، لم أعد أسمع ماذا يقول، أغلقت أذنيّ وكأنني داخل الماء. خرجت من مكتب الطبيب وكل شيء يدور حولي، لم تعد رجلاي تقويان على حملي، حتى وصلت إلى وسط الكوريدور، فاستندت على الحائط بظهري وسقطت أرضًا ممسكًا رأسي من هول ما سمعته.

استدرت إلى زينب، وهي متجمدة في وقفتها على بعد أمتار، ونورة تمسك بذراعها لكيلا تسقط أرضًا. كانت حالة زينب مزرية، فقمت مسرعًا وذهبت إليها، أجلستها في كرسي وجلست بجانبها أطمئنها أنني بخير.

عدت إلى الطبيب، فوجدته واقفًا أمام باب مكتبه يشاهد نتائج الصدمة التي أصابتنا. سألته: ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟

رد قائلًا: لقد كتبت لك بعض الأدوية لتخفيف آلام الحرقة وبعض الفيتامينات لكيلا يُغمى عليك كتلك المرة.

قالت نورة للطبيب: هل يمكنني أخذ الفحوصات معنا؟

قال لها: نعم بالتأكيد.

خرجنا بعد أن نصحني بعدم الوقوف كثيراً أو إجهاد نفسي. ركبنا السيارة متجهين إلى المترل، وذهول ما سمعنا أخرس أفواهنا، وجعل ألسنتنا لا تقوى على نطق كلمة واحدة.

دخلنا المترل، فاتصلت بالمدير وطلبت منه المرور إلى المترل عندما ينتهي، فوافق وأنهى المكالمة.

بعد ساعات، عادت نورة بعد أن ذهبت لتعرض الفحوصات على أحد أصدقائها. جلست بجانبي وأمسكت يدي. لم يكن هناك ما يقال أكثر أو أقل مما قاله لنا الطبيب في الصباح. تأسفت وذهبت إلى الغرفة للاطمئنان على زينب. بقيت جالساً في مكاني مستغرباً مما أصابني، في صمت.

كل ما تبقى لي أو لنا هو الصمت، الصمت الرهيب الذي يسبق العاصفة. لم يكن هناك حل غير الرضا بما أصابني. هذه المرة لا مفر من القدر. حُسم أمري في لحظات وظهرت نتائج أعمالي. ما أصعب أن يواسي الإنسان نفسه بكلمات لن تجدي معه نفعًا، كلمات لن تغير من مجريات الأحداث ولن تغير القدر، كلمات لا مغزى منها سوى أنها تواسينا.

حُرمنا من تقرير مصيرنا. فليشهد التاريخ أننا حاربنا بشجاعة حتى آخر نفس نتنفسه. بضع جمل كانت كفيلة بأن تجعلنا نصارع من أجل البقاء على قيد الحياة، نتمسك بحبال اليأس لعلها تبقينا قليلًا، فقط من أجل من نحب، من أجل كل من آمن بنا، من أجل كل شخص أحبنا وساندنا حتى لحظتنا هذه.

فقط من أجل زينب... المرأة التي ما كادت تتهنَّأ بحياتها الجديدة حتى أدارت لها الحياة وجهها ثانية. لا أعلم من منا يدفع الثمن، أنا أم هي؟

يا إلهي، ما ذنب هذه المرأة المسكينة؟ ألم يكفها من الآلام ما قاسته سابقًا؟ ألم يكن للحياة أن تنتظر قليلًا بعد؟

خرجنا إلى هذه الحياة بصعوبة، فعلى الأقل يجب أن نذهب منها بسهولة. خرجنا ونحن منهزمون نبكي في أول دقيقة لنا في الدنيا، أي أننا سنخرج منها ونحن غالبون مرفوعي الرأس، ونحن فرحون نضحك، أو على الأقل نودعها متعادلين.

نحن نعيش في حالة حرب، لا نراها لكننا نعيش فيها. هل هي حرب مع الحياة أم مع القدر؟ تبين أن موعد حسمها قد اقترب أخيرًا. ربما لم أكن على دراية باستراتيجية هذه الحرب، أو لم يكن

لديّ الأسلحة الكافية لخوضها أصلًا. فقط أتبع حدسي الذي لطالما خيبني دائمًا، طالما وضعني وسط مجموعة من الصعوبات والتحديات، أُصارع وحدي للخروج منها دومًا، وما إن أنتهي من مأزق حتى أجدني في مأزق أكبر منه.

جاء في بالي كل ما فعلته وما حدث لي طوال السبعة والعشرين عامًا الماضية. لم أندم على شيء فعلته سابقًا، غير أنني نادم على ما حل بهذه المرأة بسببي وما سيحل بها بعدي. لم أندم يومًا على حبي لها، لكنني نادم لأنني سأتركها وأذهب. يبدو أن محطتي اقتربت للنزول. هي رحلة طويلة بالنسبة لقدراتنا، لكنها قصيرة جدًّا بالنسبة لأعمارنا وطموحاتنا وحبنا كذلك. طويلة جدًّا عندما نتعب ونشقى ونعمل، لكنها قصيرة جدًا لكي نستمتع بما أنجزنا فيها، أن نحب ونعشق فيها. قصيرة عندما نجد الحب والرفقة في رحلتنا، قصيرة عندما نجد المتعة والراحة.

أرى أننا نعيش لِنشقى أكثر من عيشنا سعداء فيها. الحب هو سلاحنا الوحيد للحياة، للفوز بالحرب على الحياة. لكن حبنا لم يكن سلاحنا للنجاة، بل هو عقوبتنا للوقوف في وجه القدر، عقوبتنا لأننا صارعنا من أجل إسعاد روحنا المتعبة.

كان درسًا عظيمًا كلّفني حياتي وكسر قلب حبيبـــتي. عنـــدما وجدنا الحب في بعضنا البعض، نسينا قسوة الحياة علينـــا، وجـــدنا السعادة والطمأنينة التي أردناها. الحب هو الشيء الجميل في هـــذه الرحلة، لكن رحلتي قصيرة، أقصر من رحلة زينـــب. هـــا أنـــا ذا سأذهب وأتركها تكمل رحلتها حتى آخر محطة لها، لكن أتمـــنى ألا تطيل الرحلة... سأنتظرها هناك لنكمل ما بدأنا.

الوداع

بقي راجي، كعادته، يذهب إلى العمل بما استطاع من قوة، والمرض يزداد يومًا بعد يوم. الكل أتى لزيارته: أصدقاؤه، ووالداه اللذان يأتيان كل فترة. لم يرد الجلوس في المنزل وترك آخر سنة له في مسيرته المهنية.

حلّت نهاية السنة، وجاءت لحظة مغادرة هذه المدينة. جاء الكل لزيارته ذلك اليوم، حتى السيدة أُلفت أتت يومها. كانت أحواله ما تزال بخير قليلًا، ما زال بإمكانه الوقوف والحديث، لكنه يخفي كل الآلام داخله، يحاول أقصى جهده ألا يُظهر لزينب ضعفه.

جمعت زينب كل أغراضها بمساعدة والدتها ووالدة راجي. ودّع كل زملائه في المدرسة، وكذلك صديقته نورة. ودّعه الجميع بمشاعر الحسرة والألم والحزن على فراقه. دائمًا ما تكون لحظات الوداع صعبة، لكن مشاعر الوداع الممزوجة بالألم تكون قاسية كثيرًا.

جاء هذا الشاب إلى هذه المدينة مفعمًا بالطاقة، وها هو يذهب منها وهو ممتلئ ألمًا. جاء للعمل، وها هو يذهب حاصدًا المرض المميت في قلبه.

يا حسرتاه على أيام العطاء والنشاط، يا حسرتاه على القدر الذي لم يقدم لهذا النهايات الجميلة سوى الألم والمعاناة. جاء شاباً يفور الدم من وجهه، وراح كهلًا شاحب اللون تكاد الابتسامة تنعدم من وجهه بعدما كانت تملؤه عفوية وجمالًا.

لقد ترك في هذه المدينة أحلامه وأمنياته، ذكرياته في كل الأرجاء، لحظات من السعادة تكاد تخبرك عنها أزقة الشوارع وجدران بيته وأثاث منزله. ما كاد يغادر باب المنزل حتى استدار ونظر إلى أركانه، يتذكر التفاصيل التي عاشها في هذا المنزل الذي عصفت به رائحة المرض، يعيد المشاهد التي لطالما تذكرها بسعادة غامرة، وها هو يتذكرها بحسرة وندم.

دمعت عيناه وهو شارد في تفاصيل المكان الذي عاش فيه أحلى لحظات حياته برفقة حبيبته. دمعت عيناه وهو يرى زينب تجري في أرجاء المنزل هاربة منه وهي تضحك. دمعت عيناه وهو يتذكر مشاهد سباقهما على من سيشاهد قناته المفضلة. هي طرائف الحب، ولطافة العشق، وحنين الصداقة.

ربما لم يتبقَّ له سوى الندم على كل ما فات، لكنه سيتعود بعد ذلك. كان متشوقًا للعودة إلى الرباط وإكمال حياته هناك، وها هو يتحسر على تركها وراءه. استدار وغادر وكأنه يترك روحه في هذا

المكان الذي أصبح مهجوراً بعد كل الدفء الذي ملأ أرجاءه طيلة هذه السنوات.

إنه الوداع... وداع الأحبة،

وداع المكان والزمان،

وداع الذكريات،

وداع الحياة،

ووداع السعادة كذلك.

لم يكن هذا الشاب يعرف أن حياته شارفت على الانتهاء، أيام معدودات أو أشهر، آخر ما تبقى له في هذه الحياة. لم يكن يعلم أن حبه لزينب ثمنه حياته. لقد أحبها بصدق، وكذلك هي بادلته نفس المشاعر وأكثر. كان حبه لها بمثابة ترياق يهدئ به أوجاعه التي ما تكاد تزداد يوماً بعد يوم.

لقد كانت طبيبة روحه التي تتألم، روحه التي تتمزق وتعود للحياة مرة أخرى. يسمع أنينها بمجرد الجلوس بجانبه. ساعدته هذه الفتاة على عيش ما تبقى من حياته في حضنها، ساعدته على فعل ما

لم يكن يقوى على فعله سابقًا. حتى هو لم يمنعه المرض من فعل ما يرغب به، ولم يحرم نفسه من ملذات الحياة.

كان في حبهما تفاصيل لا يقوى أي شخص على وصفها. لقد ضحت معه وساندته وساعدته، وكانت المرهم لجروحه. التضحية من أجل من تحب ليست متاحة إلا لمن كان للحب أهله. لو أننا سمعنا عنهما، لقلنا إنها حكاية من نسج الخيال.

يومها كان طريح الفراش، لا يقوى على النهوض حتى. تلمّس علبة السجائر ليدخن، لكنه لم يقوَ على سحبها حتى. السجائر التي منعه منها الطبيب، لكن حبه لمذاقها كان أقوى من تنفيذ نصيحة الطبيب. فكم تبقى من عمره كي لا يستمتع بها؟ كل سيجارة يدخنها وكأنها آخر سيجارة.

وبينما هو يحاول أن يوقد القداحة، أتت زينب. نظرت إليه، وأخذت السيجارة من يده، أشعلتها، ووضعتها في فمه. كان الهدوء يعم المكان، وأشعة الشمس الدافئة تتسلل من فتحات النافذة. جلست بجانبه في هدوء تام، وراح الاثنان ينظران إلى بعضهما البعض في شرود تام. ينظر إليها بعينين ذابلتين يحيط بهما سواد داكن، ودخان السيجارة يتصاعد أمام وجهه.

كان يتساءل عن هذه المرأة الرقيقة التي أصبحت سجينته بعد المرض، عن الحياة التي لم تكن منصفة معهما، عن آمالهما وأحلامهما التي خططا لها فتلاشت في غضون سنوات قليلة.

أما زينب، فما تكاد تنظر إليه حتى تملأ عينيها الدموع... دموع الحسرة والشفقة على رفيق دربها، دموع فقدان الأمل في شخص كان قبل أربع سنوات ملاذها وسبيلها إلى حياة دافئة.

إنها دموع الخيبة... تنظر إليه بخيبة وكأنها تعرف بمرضه لأول مرة. كان في نظراتها مزيج من العرفان والحب والاستياء كذلك. خيبة الأمل على حبيبها الذي ما كاد يبدأ حياته حتى أصبحت ستنتهي في أيام معدودات. خيبة الأمل على شاب يافع أصبح ضريرًا، يعشش المرض في جوفه.

خيبة الأمل على شاب أصبح كهلًا طريح الفراش، لا يقوى حتى على الوقوف أو المشي. حتى الأكل لم يعد له طعم بالنسبة له، لقد خانته الحواس، وتلاشت منه الأحاسيس، وما تكاد الرغبة في المقاومة تقارب على الانعدام.

ما إن أطفأ سيجارته حتى تقرّب منها وضمّها إلى صدره. كل شيء يموت بسرعة إلا الغريزة. الغريزة تبقى معنا حتى النفس

الأخير، إنها شهوة الجسد. لكن كيف سيقوى هذا الشاب على تلبية رغبته ورغباتها هي كذلك؟ في كل مرة يصل فيها هذان الزوجان إلى هذه المرحلة، تكون نتائجها غير مرضية لكليهما؛ فهو يعلم أنه غير قادر على فعلها، ونفسه لا تقوى على ترك الرغبة في داخله، ولا توجد طاقة كافية للممارسة.

إنها كلالة الجسد وخمود الحواس. إنه عاجز عن إعطاء الحب، باتت حواسه باردة، وآثار المرض أصبحت واضحة على وجهه وجسده كله. بات يعلم أنه لم يتبقَّ له الكثير في هذه الحياة، ولم تعد تنفع الأدوية والعلاجات في شيء. كل ما أراده الآن هو أن يموت في بيته، في حضن حبيبته، المرأة التي قبلته بقوته وضعفه، بحسنه وسوئه. هي تدرك أنه بعد أيام أو أسابيع ستصبح أرملة وحيدة يائسة، ومع ذلك، بعد مرضه لم تتركه ولو للحظة، ولم تشتكِ، حتى إنها تدعو الله أن يمده بالقليل فقط لرؤيته معها.

استقالت من عملها وجلست ترعاه، فقط تريد تمضية ما تبقى له من العمر بجانبه، فمجرد أيام وسيكون لديها الوقت الكافي للعمل والبكاء واليأس.

هل ستعود حياتها كما كانت بعده؟

في إحدى الليالي قالت له إنها تكرهه كثيرًا، وتحبه بمقدار كرهها له. تكرهه لأنه سيتركها، ولن يراها تشيب بجانبه كما وعدها، وتحبه أيضًا لأنه ما زال متشبثًا بالحياة ويصارع لأجلها.

تتدهور حالته يومًا بعد يوم، وتزداد سوءًا بعد سوء. في أحد الأيام، خرجت زينب للتسوق، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر، فدق جرس الباب. كان راجي مستلقيًا في الفراش، وبقي الجرس يرنّ، لكنه لم يقوَ على النهوض لفتح الباب. قاوم بشدة وهو يستند إلى الحائط ليصل إلى الباب حتى سقط أرضًا.

كانت والدة زينب هي الطارقة، وسمعت صوت سقوط شيء في الداخل، كأغراض من على الطاولة. كانت تحاول الاتصال بزينب كثيرًا، لكنها تركت الهاتف في المنزل. دقائق بعد ذلك حتى أتت زينب ووجدت والدتها تنتظر أمام الشقة. لم تعرف ماذا ستقول لها، فتحت زينب الباب، فإذا به ممددًا على السجاد وسط المنزل. اتصلوا فورًا بالطبيب، وكانت زينب شاحبة اللون تخشى أن لحظة الوداع قد أتت، لكنها لم تتوقعها بهذه القسوة عليه؛ على الأقل أن يموت في فراشه وهو يلفظ كلماته الأخيرة ممسكًا بيدها.

ما هذه المعاناة التي عاشتها هذه المرأة؟ وما هذا الذنب الذي اقترفه هذا الشاب المسكين؟

لحظات من التفكير حتى خرج الطبيب وطمأنهم، إذ كانت مجرد انخفاض في درجة الحرارة والإعياء، وهو أمر عادي بالنسبة لحالته.

أعادوه إلى المترل عشيتها كجثة لا تقوى على المشي. دخلت زينب المطبخ لتعد الشاي، وتركت والدتها بجانبه، تنظر إليه في صمت وهو لا يكاد يرفع عينيه للنظر إليها. انصدمت كثيراً لرؤيته هكذا، فآخر مرة رأته فيها كان ما يزال يمشي ويتحرك. مشهد شبيه برؤية جثة باردة.

قبل سنوات أتى إلى بيتها وهو رافض الاستسلام للقدر، كله قوة وصلابة، وها هو الآن لا يكاد يشبه سوى جثة هامدة.

إنها آثار الصمود إلى آخر نفس، هذه آثار الحرب مع الحياة. الحب، الخوف، السعادة، المرض، الموت... كل شيء يأتي بأوانه، ولا مفر من القدر. هذه طبيعة الحياة.

رسالة راجي

حبيبتي الغالية زينب،

رفيقة دربي القصير،

طفلتي الغالية وسيدة قلبي،

زينب...

ها أنا أودعك والحسرة تلهب أعماقي. عندما تقرئين هذه الرسالة سأكون قد رحلت عنك. لقد كنتِ نعم الزوجة ونعم الصديقة.

لقد ملأ الندم أفكاري بتركك يا حبيبتي. لو خُيّرت بأن أعود للقائك كأول يوم رأيتك فيه، لعدت متلهفًا فقط لرؤية عينيك وجمال ضحكتك.

سامحيني...

ها أنا أغادر دون إذنك، ذهابٌ بلا عودة. في ذلك اليوم الذي طلبتك للزواج سألتك: "من أنتِ؟" وها أنا أجيب نفسي بنفسي... أنتِ الحب يا زينب، أنتِ الماضي والحاضر والمستقبل، أنتِ السعادة

التي ملأت قلبي يا صديقتي، أنتِ رفيقة الدرب وحبيبة القلب يا زينب.

ربما لم أترك ذكرى تذكرك بي، لكنني أتمنى أن أكون قد تركت ذكرى طيبة في قلبك. سامحيني لأني لم أَفِ بوعودي لك، سامحيني لأني جرحت قلبك برحيلي، سامحيني بالرغم من أني أعلم أن السماح لن يعيد شيئًا كما كان، ولن يطفئ الجمرة في قلبك.

سامحيني... لم أخبر قلبك برحيلي، وخطفت بذلك نبضاته، وتركتك في حزنك تتمزقين. ستعانين كثيراً يا حبيبتي، وربما تتمنين الموت، لكن كل شيء إلا الندم. سأنتظر قطارك بشوق... لا تتأخري، فالطريق هناك طويل، والعمر لن يفنى بوجودك.

لقد عشنا لحظات جميلة في هذه الحياة، وسنكمل باقي القصة هناك بإذن الله. هذا هو المجاز يا صديقتي... كل شيء فيها فانٍ، لكن الحقيقة هناك عند الله دائمة لا تفنى.

كنتِ طبيبتي، بالحب تداوينني، وها أنا أصبحت غريبك، والقبر صديقي. لقد كنتِ أسعد لحظاتي وحبي وحياتي.

لا تبكي، فدموعك تؤلمني... اضحكي، فضحكتك أغلى من حياتي.

دمتِ متألقة، ودمتِ أطيب الناس على قلبي.

سامحيني...

ماذا لو لم تمت؟

مات راجي وماتت معه حياتي، وكل أحلامي وأمنياتي. جمعنا النصيب وخاننا القدر. ألم يكن للقدر أن ينتظر قليلًا؟ لماذا لا تنصفنا الحياة؟

ذهب راجي، فلا رجاء بعده. ذهب وترك لي غصة في القلب وحرقة في الروح. أخذ معه ضحكتي وسعادتي وكذلك قلبي. ذهب وترك قطعة منه في أحشائي، لا أنا أفرح له ولا أنا أحزن عليّ. تركني أقاوم وحدي في صمت، أرمم ما تبقى من كسور في قلبي.

ندمي عليك يا صديق الروح يقتلني، وأسفي لن يعيدك يا حبيبي. كل الجروح تُشفى إلا جرحك في قلبي لن يشفى إلا برؤيتك أمامي. بين النصيب والقدر هناك مقبرة يدفن فيها ضحايا الحب، وها أنا أدفنك بدون عزائي.

هل سينتهي كل هذا العذاب والحزن عندما أبكي؟ هل ينساك القلب والعقل وتُنسى بالبكاء؟ والله لو أتوا بحزن الدنيا كلها وحسرتها، لن أنساك ما دمت في هذه الحياة.

لو أنني علمت أن هذا الحب سيفعل بك كل هذا، ما ركبـــت ذلك القطار أبدًا. لو كنت أعلم أن الثمن هو روحـــك، لبقيـــت مسجونة، حتى مماتي.

أنا لعنتك، فسامحني... دمت لي حبيبًا وصديقًا يا غالٍ.

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

فكرة 6
البداية 9
نورة 16
راجي 20
اللقاء 24
الليل في الشاطئ 38
فتاة القطار 73
خيبة الأمل 98
زواج راجي وزينب 112
مرض راجي 116

الوداع.....128
رسالة راجي.....136
ماذا لو لم تمت؟.....139

لَو لم تمت

رواية

حمزة العباسي

روائي وكاتب قصص قصيرة من مواليد سنة 1997 بمدينة الرباط، المغرب. يتميز بأسلوبه السردي العميق، وقدرته على الغوص في التفاصيل الدقيقة من خلال أعمال تتناول قضايا اجتماعية، وتحمل في طياتها لمسات من الواقعية والرمزية. يواصل مسيرته في الكتابة بحثًا عن الذات، واكتشاف المعنى في دهاليز الحياة اليومية.

هي رواية عن الحياة والموت، السعادة والمرض، الحب وكذلك الفراق، هي رواية عن تقرير المصير وسلطة العائلة وتحدي القدر.

عندما تقرر العائلة كل شيء في حياتنا والتحكم بالتحكم بنا، وعندما تحاسبنا الحياة على تحدي القدر لتقرير مصيرنا.

إنها رواية عن الحب والخوف، الخوف، السعادة، المرض والموت.

Bassmabook
0021277181493
darbassma1@gmail.com